فَفِرُّوا إلى اللَّه

إعداد

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الدينية
شعبة التبليغ

أسم الكتاب : فَفِرُّوا إلى الله

إعداد : شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينية

الناشر : العتبة العلوية المقدسة

المراجعة : شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينية

الطبعة : الثانية المزيدة والمنقحة

سنة الطبع : ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

قياس : ١٧ × ١٢

عدد الصفحات : ١٧٦

عدد النسخ : ١٠٠٠٠

الموقع الإلكتروني : www.imamali.net

البريد الإلكتروني : tableegh@imamali.net

موبايل : ٠٧٧٠٠٥٥٤١٨٦

مقدمة أسبوع التوبة للسنة الثانية:

في البدء كانت فكرة ثم جرّت إلى حوار وهذا الحوار تبلور إلى برنامج عمل نسعى من خلاله إلى تثقيف المجتمع وحثهم على التوبة من الذنوب وكذلك التركيز على كبائر الذنوب التي تنهش جسد المجتمع الإسلامي وتسبب له ممارسات خاطئة على مستوى الفرد أو المجتمع ومن ثم تتراكم هذه الذنوب فتكون حجاباً عن الحق – والعياذ بالله – أو مدعاة للقنوط من رحمة الله تعالى.

نعم هكذا كانت البداية بسيطة ولكنها صادقة، ثم توالت الخطوات لتتميم العمل ولكن لم يكن الفريق المكلف به كبيراً في عدده، ولكنه كان كبيراً في إخلاصه وتفانيه، وكبيراً في أمله وطموحه.

بدأنا نواصل العمل بشكل دؤوب راجين خائفين، راجين الله أن ينجح عملنا بأن ننجز ما أردناه أولاً، وأن يحقق ما أملنا فيه ثانياً، وخائفين من ضيق الوقت وعدم محالفة التوفيق لأن يكون هذا العمل حياً شاخصاً للأبصار، فكنا نتوسل بصاحب المقام عليه السلام بأن يسدد خطانا وينجح

عملنا.

ولكن الله تعالى لم يتركنا وحدنا بل أكرمنا بألطافه وأفاض علينا من بركاته ما جعل هذا العمل الصغير مادياً كبيراً في نفوس الناس، وله أثر كبير أيضاً على مستوى النتائج المتوخاة منه، فكم من شخص اتصل بنا يثني على الجهود المبذولة في هذا الإطار ذاكراً حادثة وقعت قريباً منه رجع فيها شخص إلى رشده وأثر فيه هذا الكتاب أو ذاك أثراً طيباً بعد قراءته.

فنحمد الله تعالى أن أكرمنا بالهداية ووفقنا لخدمة دينه والمؤمنين من عباده ونشكره على نعمائه ونسأله التوفيق في هذا الطريق، وأن يعيننا في تطوير هذا العمل وغيره لما فيه خير الدنيا والآخرة.

على أنا لم ندخر وسعاً في مراجعة ما كتب في العام السابق لتمحيصه وتعديل ما يحتاج إلى تعديل أو الإضافة على ما نراه قاصراً كمّاً وكيفاً في أداء المطلوب وكذلك حاولنا إضافة عناوين أخرى في هذا المجال، لتتكامل شيئاً فشيئاً مكتبة أسبوع التوبة، وتضم في ثناياها كل

ما يحتاجه الإنسان في هذا المجال، فأضفنا هذه السنة مجموعة من العناوين الجديدة كالربا والرياء وقذف المحصنات والتعرب بعد الهجرة، وقتل النفس المحترمة، واللهو... إلى غير ذلك من العناوين، ثم ارتأينا إضافة بعض الاستفتاءات التي تخص كل كتاب تتميماً للفائدة وتعميقاً لثقافة الحكم الشرعي.

وأخيرا حاولنا أن نضيف ما يرّغب القارئ أكثر في قراءة هذه السلسلة، ويثير فيه الفضول نحوها، فأدرجنا في نهاية كل كتاب مسابقة حول مضامين ما ورد فيه، لتطوير العمل في هذا الاتجاه والوصول به إلى ما يحقق الهدف منه.

أخذ الله بأيدينا لما فيه الخير والصلاح وجعل عملنا خالصاً لوجهه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

شعبة التبليغ

١٥/ج٢/ ١٤٣٥

مقدمة أسبوع التوبة للسنة الأولى:

إن الممارس للعمل التبليغي الديني وفي مجال الأحكام الشرعية بالخصوص يرى أن هناك شريحة كبيرة من المجتمع تعتبر معرفة الأحكام الشرعية مجرد ثقافة ليس إلا ولا يعنيها أمر تطبيقها، وهناك من يعلم بوجوب التطبيق ولكنه لا يهتم بذلك إلا بمقدار الحديث عنها ثم بعد ذلك يرجع إلى حالته الأولى من الإهمال أو التسويف، وهكذا فالنماذج متعددة والصور مؤلمة.

ونحن إذا أردنا أن نتعمق في نفسية المجتمع - أيّ مجتمع في الوقت الحاضر- ونسبر غوره لنطلع على أسباب هذا العزوف في تعلم الأحكام الشرعية ومن ثم تطبيقها أو لا أقل البرود العام من هذه الجهة، نجد أهم عامل في ذلك هو كثرة الذنوب التي تكبل الإنسان عن التحرك نحو الله تعالى وتقعد به عن واجبه التكاملي، ففي الحديث عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام: (**إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فإن تاب اضمحلت وإن زاد زادت حتى**

تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبدا)[1].

وزيادة الذنوب له أسباب موضوعية كثيرة منها اجتماعية لسنا - فعلاً - بصدد الحديث عنها أو معالجتها جذرياً لأن قسماً كبيراً منها يتعلق بالجوانب الاجتماعية العامة للبلد في الفترات السابقة وكثير منها ليس بمقدورنا.

ولكن هذا لا يعني عدم إمكانية معالجة الأسباب الفردية وذلك بإحياء أمر مهم في نفوس الناس يبعث فيهم الحياة من جديد ذلك أن الإنسان إذا أذنب ومارس الذنوب لمدة من الزمن يقسو قلبه ويتطبع على ارتكاب الذنوب هذا من جانب.

ومن جانب آخر شيئاً فشيئاً يموت في قلبه الأمل من رحمة الله ويدب في قلبه القنوط عن شموله بالمغفرة من الذنب.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، باب الصلاة ح١٢.

وهـذا الإنسـان بهـذه النفسـية لا يتقبـل الحكـم الشرعـي – بعـد أن يجـد نفسـه غارقـاً بالذنـوب – ولا يتفاعـل معـه التفاعـل الايجـابي.

لـذا نـرى ومـن منطلـق حـل المشـاكل النفسـية للمجتمـع والتـي تصـب في مصلحـة التبليـغ الدينـي أن يخصـص أسـبوع في السـنة قبـل شـهر رمضـان. يكـرس هـذا الأسـبوع لبحـث مسـألة التوبـة مـن جميـع جوانبهـا وعـلى جميـع الأصعـدة مـن إذاعـة وصحافـة وإعلانـات ومحـاضرات دينيـة في العتبـة وفي المسـاجد والحسـينيات، بحيـث يـدرك الإنسـان المؤمـن أن البـاب مـا زال مفتوحـاً للرجـوع إلى حظـيرة القـدس وغسـل روحـه بـماء التوبـة ليجـدد العهـد مـع الله ويعـود إلى حيـاة الإيـمان فتنفتـح روحـه لتقبـل أحكامـه مـن جديـد.

شعبة التبليغ

الانتباه إلى الآفات

الذنوب من جملة الآفات النفسية التي تمنع من تكامل الإنسان وبلوغه الرقي النفسي والخلقي المطلوبين بحسب الشريعة الإسلامية، باعتبار أن تكامل النفس الإنسانية من جملة اهتماماتها بل من أهم أولوياتها، ولذا أثر عن النبي الأكرم ﷺ قوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1]، وقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه ﷺ: (طبيب دوار بطبه)[2]، فالرسالة المحمدية اهتمت كثيرا بتربية النفس بجهادها ورياضتها وتقوية ملكة الإرادة فيها، لمصارعة الهوى والشهوات والتي هي من الدواعي الرئيسة للذنوب، ولاشك أنّ أول الطريق لمعالجة الذنوب معرفتها؛ ولذا فإنّ الانتباه إلى تلك الآفات التي تصيب الإنسان من أهمّ الأمور التي ينبغي التعرف عليها، وهي بمنزلة النبات الرديء الذي ينبت في أرض النفس الإنسانية فيحجب النور عن باقي النباتات النافعة ويضعف تربة النفس من

(١) بحار الأنوار: ج٧٦ ص٢٧٣.

(٢) نهج البلاغة: ج١ ص٧٠٢.

تنمية الفضائل، فلو فرضنا أن هناك بستانين متشابهين من حيث الماء والهواء والتراب والحرارة وكذلك حال الشبه بالنسبة إلى أشجارهما، وكان لهما فلاحان، أحدهما يهتم بمكافحة الأمراض والآفات التي كانت تصيب بستانه، أمّا الآخر فكان يجهل، أو لا يهتم بأمراض وآفات بستانه، فمن الطبيعي أن يكون بستان الأول ذا ثمار جيدة، ومتنوعة بينما يكون بستان الثاني مأَكْلاً للدود وعرضة للذبول.

وهكذا الإنسان إذا لم يعالج أمراضه الروحية والجسمية فسيصبح عنصراً ضارّاً وخطراً، أمّا إذا انتبه وراقب نفسه وعالج أمراضها، فعندها يكون شخصاً مفيداً ولائقاً.

إنّ الآفات والأضرار في الإنسان هي عيوبه المؤدية إلى ارتكابه للذنوب، وهي التي أرسل جميع الأنبياء وكذلك نزلت الكتب السماوية على تحذير الناس من مغبّة التلوث بها، مؤكّدين على الطهارة واجتناب الذنب، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن لله تعالى ملكاً ينزل كل ليلة فينادي:

يا أبناء العشرين جدوا واجتهدوا، ويا أبناء الثلاثين لا تغرنكم الحياة الدنيا، ويا أبناء الأربعين ماذا أعددتم للقاء ربكم، ويا أبناء الخمسين أتاكم النذير، ويا أبناء الستين زرع آن حصاده، ويا أبناء السبعين نودي لكم فأجيبوا، ويا أبناء الثمانين أتتكم الساعة وأنتم غافلون، ثم يقول: لولا عبادٌ ركع ورجال خشع وصبيان رضع وأنعام رتع لصب عليكم العذاب صباً)[1].

(١) مستدرك الوسائل: ج٢١ ص٧٥١.

الفصل الأول

الذنوب

تمهيد

الذنوب في لسان الآيات والروايات

الكبائر والصغائر

تكفير الصغائر

الصغائر قد تكون كبائر

آثار الذنوب

وسائل علاج الذنوب

خلاصة الكلام

تمهيد

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1].

إننا لو نظرنا إلى الأمراض الصحية التي يعانيها الإنسان لوجدناها غالباً ما تكون بسبب مخالفة الدساتير الطبية التي وضعها الأطباء وقايةً وعلاجاً للأبدان، وكل مخالفة لقاعدة من قواعد الطب هناك مرض في مقابلها، هذا في الأمراض الصحية أما الذنوب فهي أعظم مغبة وغائلة فهي:

١- تسبب الأمراض البدنية والروحية.

٢- توجب التعاسة للإنسان وتمنع سعادته في الدنيا.

٣- تجلب سخط اللهَّ وتزيل رحمته.

٤- ونتيجة لذلك توجب عذاب الآخرة، في البرزخ ويوم القيامة.

---

(١) سورة الأنعام: آية١٥١.

الذنوب في لسان الآيات والروايات

أما في التحذير من المعاصي فقد جاءت آيات وروايات للتهويل منها، فمن ضمن الآيات قوله تعالى: ﴿**بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾[٢].

ففي الآية الأولى صرح القرآن الكريم على أن اكتساب المعاصي سبب لدخول النار والخلود فيها، بينما الآية الأخرى وصفت أتباع الرسول ﷺ بأنهم هم الراشدون لكونهم تركوا الكفر والفسوق والعصيان، فكل هذه الأمور هي أساس الشر والطغيان فلو صفا الإنسان عنها لصار من القوم الذين يحبون لقاء اللهَّ تعالى لأنهم

(١) سورة البقرة: آية١٨.

(٢) سورة الحجرات: آية٧.

راضون عن أنفسهم، بعد رضا الله سبحانه عنه.

وقال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾(٢).

وقال جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة: آية٩٥.

(٢) سورة المائدة: آية٩٤.

(٣) سورة الأنعام: آية٦.

(٤) سورة الأعراف: آية ٦٩.

وقال تقدست آلاؤه: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

وقال تقدست أسماؤه: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(٥).

وأما الأحاديث فهي كالمعتاد تفصل وتبين حتى الجزئيات الدقيقة لهداية البشر وإليك ما يهز الكيان ويحفز القلب فقد قال الرسول الأكرم ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام الصادق عليه السلام عنه قال: (عجبت لمن

(١) سورة نوح: آية٢٥.

(٢) سورة الشمس: آية١٤.

(٣) سورة الأنعام: آية١٢٩.

(٤) سورة المطففين: آية١٤.

(٥) سورة الشورى: آية٣٠.

يحتمي من الطعام مخافة الداء كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار)[١].

فنحن نخاف من الطعام الذي يضرنا ولكن في المقابل هنالك شيء إذا فعلناه لم نتمرض فقط بل ندخل النار ألا وهي الذنوب فكما لابد أن نحافظ على صحتنا من الأمراض لابد أن نرحم أجسادنا الضعيفة عن النار.

وقال ﷺ: (احذر سُكر الخطيئة فان للخطيئة سكرا كسكر الشراب، بل هي أشد سكرا منه يقول الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾)[٢].

وعنه ﷺ: (إن العبد ليُحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وإنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن)[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (ألا وإن الخطايا خيل شُمُس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم في النار)[٤].

وعنه عليه السلام: (يا أيها الإنسان، ما جرأك على ذنبك، وما

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٩٥٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٧، ص٢٠١.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٧٢.

(٤) المصدر السابق: ج٨، ص٧٦.

غـرك بربـك، ومـا آنسـك بهلكـة نفسـك)[١].

وعنه عليه السلام: (مجاهرة الله سبحانه بالمعاصي تعجل النقم)[٢].

وعنـه عليه السلام: (أسرع المعـاصي عقوبـة أن تبغـي عـلى مـن لا يبغـي عليـك)[٣].

وعنـه عليه السلام: (مـا جفـت الدمـوع إلا لقسـوة القلـوب، ومـا قسـت القلـوب إلا لكثـرة الذنـوب)[٤].

وسُـئل أمـير المؤمنـين عليه السلام: (أي ذنـب أعجـل عقوبـة لصاحبـه؟ فقـال: مـن ظلـم مـن لا نـاصر لـه إلا الله، وجـاور النعمـة بالتقصـير، واسـتطال بالبغـي عـلى الفقـير)[٥].

وعـن العبـاس بـن هـلال الشـامي قـال: سـمعت الرضـا عليه السلام يقـول: (كلـما أحـدث العبـاد مـن الذنـوب مـا لم يكونـوا يعملـون، أحـدث الله لهـم مـن البلاء مـا لم يكونـوا يعرفـون)[٦].

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص٣١٢.

(٢) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: ج٤، ص٩٥.

(٣) مستدرك الوسائل: ج٢١، ص٧٨.

(٤) وسائل الشيعة: ج٦١، ص٥٤.

(٥) الاختصاص: ص٤٣٢.

(٦) الكافي: ج٢، ص٥٧٢.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: يقول الله عز وجل: (إذا عصاني من عرفني سلطت عليه من لا يعرفني)[١].

وعنه عليه السلام: (الذنوب التي تغير النعم البغي، والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تنزل النقم الظلم، والتي تهتك الستر شرب الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تعجل الفناء قطيعة الرحم، والتي ترد الدعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين)[٢].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: (إن لله عز وجل في كل يوم وليلة مناديا ينادي: مهلا مهلا عباد الله عن معاصي الله، فلولا بهائم رُتَّع، وصبية رُضَّع، وشيوخ رُكَّع، لصب عليكم العذاب صبا، ترضون به رضا)[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (كتب رجل إلى الحسين عليه السلام: عظني بحرفين، فكتب إليه: من حاول أمرا بمعصية الله كان أفوت لما يرجو وأسرع لمجيء ما يحذر)[٤].

(١) الكافي: ج٢، ص٦٧٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٨٤٤.

(٣) المصدر السابق: ج٢، ص٦٧٢.

(٤) الكافي: ج٢، ص٣٧٢.

وعن الإمام الرضا عليه السلام: (إذا كذبت الولاة حبس المطر، وإذا جار السلطان هانت الدولة، وإذا حبست الزكاة ماتت المواشي)[1].

الكبائر والصغائر

قسم الفقهاء الذنوب إلى قسمين:

١ ـ الذنوب الكبيرة.

٢ ـ الذنوب الصغيرة.

والكبائر هي: ما توعد بها الله النار على فاعلها، أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه، ويعني بوصفه بالكبيرة: إن العقوبة بالنار عظيمة، أو أن تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه، وقد اختلف الفقهاء اختلافا كبيرا في تعدادها وتشخيصها، كما وردت مجموعة من الروايات التي تحدد الكبائر بعدد مختلف سنتعرض لها، وذكر بعض الفقهاء في حكمة هذا الاختلاف: إن الشرع لم يعينها، وأبهمها ليكون العبد على وجل منها، فيجتنبون جميع الذنوب، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جِدُّ الناس في

(١) وسائل الشيعة: ج٩، ص١٣.

طلبها، وواظبوا في ليال متعددة على العبادات، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جميع أسماء الله.

ومنشأ التقسيم إلى الكبائر والصغائر من القرآن الكريم والروايات، فمثلاً نقرأ في القرآن الكريم: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً**﴾[١].

وفي آية أخرى: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾[٣].

واللَّمَم: ما دون الكبائر من الذنوب، وهو صغار الذنوب، قال الأَخفش: اللَّمَمُ المُقارَبُ من الذنوب[٤].

وقال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ**

(١) سورة النساء: آية١٣.

(٢) سورة الكهف: آية٩٤.

(٣) سورة النجم: آية٢٣.

(٤) لسان العرب: ج٢١، ص٩٤٥.

وَالْفَوَاحِشَ ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً**﴾[٢].

ومن خلال هذه الآيات الشريفة يتبين أن الذنوب في الإسلام على نوعين: صغيرة وكبيرة.

وأما الروايات فقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام روايات متعددة تبين لنا تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة.

فالذنوب الكبيرة تطلق على ما جعل الله جزاءها النار والجحيم واجباً وحتمياً.

فعن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: (﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً**﴾ قال: الكبائر، التي أوجب الله عز وجل عليها النار)[٣].

وجاء في بعض هذه الروايات أن الذنوب الكبيرة سبعة أنواع، فعن ابن محبوب قال: (كتب معي بعض أصحابنا

(١) سورة الشورى: آية ٧٣.

(٢) سورة النساء: آية ٨٤.

(٣) الكافي: ج٢، ص٦٧٢.

إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الكبائر كم هي وما هي؟ فكتب: الكبائر: مَن اجتنب ما وعد الله عليه النار كفر عنه سيئاته إذا كان مؤمنا، والسبع الموجبات: قتل النفس الحرام وعقوق الوالدين وأكل الربا، والتعرب بعد الهجرة وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف)[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: الكبائر سبع: قتل المؤمن متعمدا وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الربا بعد البينة وكل ما أوجب الله عليه النار)[2].

وعن عبيد بن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الكبائر، فقال: هن في كتاب علي عليه السلام سبع: الكفر بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البينة، وأكل مال اليتيم ظلما، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، قال: فقلت: فهذا أكبر المعاصي؟ قال:

(١) الكافي: ج٢، ص٦٧٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٧٧٢.

نعم قلت: فأكل درهم من مال اليتيم ظلما أكبر أم ترك الصلاة؟

قال: ترك الصلاة، قلت: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر؟ فقال: أي شيء أول ما قلت لك؟ قال قلت: الكفر، قال: فإن تارك الصلاة كافر)[1].

وفي بعضها أنها تسعة عشر ذنباً، فعن الإمام الجواد عليه السلام قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي موسى بن جعفر عليهما السلام يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام فلما سلم وجلس تلا هذه الآية: ﴿**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ**﴾ ثم أمسك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما أسكتك؟ قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله عز وجل، فقال: نعم يا عمرو، أكبر الكبائر الإشراك بالله، يقول الله: ﴿**مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**﴾، وبعده الإياس من رَوح الله، لأن الله عز وجل يقول: ﴿**إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ**﴾، ثم الأمن من مكر الله، لأن الله عز وجل يقول: ﴿**فَلا يَأْمَنُ**

(١) الكافي: ج٢، ص٨٧٢.

﴿مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ومنها عقوق الوالدين، لأن الله سبحانه جعل العاق جبارا شقيا[1]، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾، وقذف المحصنة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وأكل مال اليتيم، لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾، والفرار من الزحف، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وأكل الربا، لأن الله عز وجل يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ﴾، والسحر، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، والزنا، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ

(١) إشارة لقوله تعالى: (وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً).

﴿ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾، واليمين الغموس الفاجرة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾، والغلول، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، ومنع الزكاة المفروضة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، وشهادة الزور وكتمان الشهادة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وشرب الخمر، لأن الله عز وجل نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان، وترك الصلاة متعمدا أو شيئا مما فرض الله، لأن رسول الله ﷺ قال: مَن ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ، ونقض العهد وقطيعة الرحم، لأن الله عز وجل يقول: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك مَن قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم)[1].

---

(١) الوسائل ج٥١ ص٨١٣، والكافي: ج٢، ص٥٨٢- ٧٨٢.

تكفير الصغائر

كما أن ما تقدم من آيات الكتاب العزيز والروايات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام قسمت الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، كذلك ذكرت آيات وروايات أخرى أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، قال الله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ**﴾[2]، وأن بعض الواجبات لاسيما الصلوات الخمس تكفر الصغائر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر)[3].

الصغائر قد تكون كبائر

مادامت المعصية تعد مخالفة لحكم من أحكام الله تعالى، فهي تستوجب الذنب والعقوبة في الدنيا والآخرة، ولا يختلف في ذلك الصغائر والكبائر فكلاهما معصية، ولكن

---

(١) سورة النساء: آية١٣.

(٢) سورة النجم: آية٢٣.

(٣) جامع السعادات: ج٣ ص٨٥.

الفرق بينهما في شدة العذاب وقلته، فالكبائر هي التي توعد اللهَّ مرتكبها بالنار في كتابه المجيد، كعقوق الوالدين والحسد والغيبة، وأما الصغائر فهي ما ورد عن طريق النبي ﷺ أو أهل بيته عليهم السلام تحريمها ولم يرد وعيد في القرآن عليها أو ذكر النار عقوبة لها، كما تقدم بيان ذلك.

ولكن مع ذلك فهنالك حالات تكون الذنوب كلها عظيمة وتوجب دخول النار فتتحول الصغيرة إلى كبيرة بأسباب:

أحدها: الإصرار والمواظبة على الذنب، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أعظم الذنوب عند اللهَّ ذنب أصر عليه عامله)[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار)[2].

والسر فيه: أن الصغيرة لقلة خطرها لا تؤثر في القلب بإظلامه مرة أو مرتين، ولكن إذا تكررت تراكمت آثارها

(١) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٨٦٣.

(٢) الكافي: ج٢ ص٨٨٢.

الضعيفة فصارت قوية وأثرت على التدريج في القلب، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: (خير الأعمال أدومها، وإن قل)[1].

وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلت، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وإن قلت.

ثم إن معنى الإصرار أيضا يحتاج إلى تعريف وقد جاء في تعريفه، حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، قال عليه السلام: الإصرار: أن يذنب الذنب، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار)[2]. والظاهر أن الإمام عليه السلام كان بصدد بيان أدنى مراتبه.

وثانيها: استصغار الذنب، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أشد الذنوب عند اللهَّ سبحانه ذنب استهان به راكبه)[3].

---

(١) جامع السعادات: ج٣ ص٩٥.

(٢) الكافي: ج٢ ص٨٨٢.

(٣) جامع أحاديث الشيعة: ج٣١ ص٤٣٣.

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: (من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل يا ليتني لا أُواخَذُ إلا بهذا)[١].

فان العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألفة به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة، لعدم تأثره به.

ولذلك ورد في الخبر: (أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره)[٢].

وروى زيد الشحام عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (اتقوا المحقرات من الذنوب، فإنها لا تغفر، قلت: وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب، فيقول طوبى

(١) الخصال: ص٤٢.

(٢) جامع السعادات: ج٣ ص٩٥.

لي لـو لم يكـن لي غـير ذلـك)[١].

وروي عـن رسـول الله ﷺ أنـه نـزل بـأرض قرعـاء، فقـال لأصحابـه: (ائتونـا بالحطـب، فقالـوا: يـا رسـول الله! نحـن بـأرض قرعـاء مـا بهـا مـن حطـب، قـال: فليـأت كل إنسـان بـما قـدر عليـه.

فجـاءوا بـه حتـى رمـوه بـين يديـه بعضـه عـلى بعـض، فقـال ﷺ: هكـذا تجتمـع الذنـوب، إيـاك والمحقـرات مـن الذنـوب فـان لـكل شيء طالبـاً، ألا وإن طالبهـا يكتـب مـا قدمـوا وآثارهـم وكل شيء أحصينـاه في إمـام مبـين)[٢].

وقـال أمـير المؤمنـين عليه السلام: (لا تصغـر مـا ينفـع يـوم القيامة، ولا تصغـر مـا يـضر يـوم القيامـة، فكونـوا فيـما أخبركـم الله كمـن عايـن)[٣].

وقـال الإمـام الباقـر عليه السلام: (اتقـوا المحقـرات مـن الذنـوب فـان لهـا طالبـاً، يقـول أحدكـم: أذنـب واسـتغفر الله، إن الله عـز وجـل يقـول: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ**

(١) الكافي: ج٢ ص٧٨٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٠ ص٦٤٣.

(٣) جامع السعادات: ج٣ ص٠٦.

أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. وقال عز وجل:

﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾)[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير)[2].

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: (لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف)[3].

والسر في عظم الذنب الصغير هو النظر إلى من يبارز به الإنسان ومن يعصي، فمن عصى ربه الكبير المتعال يرى الصغير كبيراً، وإن كان في نفسه صغيراً، ولكن بالجرأة على الله وعصيان أمره يستوي الذنب الكبير والصغير في العِظَم، وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: (لا تنظر

(١) بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٢٣.

(٢) الكافي: ج٢ ص٧٢٤.

(٣) المصدر السابق.

إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها)[١].

وثالثها: أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها، اغتراراً بستر الله عليه، وحلمه عنه، وإمهاله إياه، ولا يعلم أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فتزهق أنفسهم وهم كافرون، فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، فهو جاهل بمكامن الغرور، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن مكره إلا الكافرون.

ورابعها: السرور بالصغيرة وعدّ التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: (إياك والابتهاج بالذنب فإن الابتهاج به أعظم من ركوبه)[٢].

فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه، فمن هتك عرض مسلم وفضحه، أو غبنه في ماله في المعاملة ثم فرح به، ويقول: أما رأيتني كيف هتكت عرضه؟ وكيف فضحته؟ وكيف روجت

(١) جامع السعادات: ج٣ ص٠٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٧ ص٩٥١.

عليه الزيف؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه، إذ الذنوب مهلكات، وإذا ابتلى بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث إن العدو - أعني الشيطان - ظفر به وغلب عليه، لا أن يفرح بذلك، فالمريض الذي يفرح بانكسار إنائه الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

وخامسها: أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتي به في مشهد غيره، فإن ذلك خيانة منه على الله الذي أسدله عليه، وتحريك الرغبة والشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما خيانتان انضمتا إلى خيانته فتغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانته رابعة، وتفاحش الأمر، وهذا لأن من صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة، قال رسول الله ﷺ: (المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له)[1].

(١) وسائل الشيعة: ج٩ ص٦٥٤.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله فنحوه)[١].

وسادسها: أن يكون الآتي بالصغيرة عالماً يقتدي به الناس، فإذا فعله بحضرة الناس كبر ذنبه، وذلك كلبسه الذهب والإبريسم، وأخذه مال الشبهة، وإطلاقه اللسان في أعراض الناس، ونحو ذلك، فهذه ذنوب قد يتبعه غيره ويقلده، فيكون شريكاً في الإثم، وحتى بعد موته يبقى شره مستطيراً في العالم، ففي الخبر: (مَن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء)[٢]، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، قال الله تعالى: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾[٣]، والآثار: ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل، فعلى المذنب وظيفتان: إحداهما: ترك الذنب، والأخرى: إخفاؤه.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٢٤٤.

(٢) جامع السعادات: ج٣ ص٢٦.

(٣) سورة يس: آية٢١.

آثار الذنوب

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1]، تكلمنا في المقام السابق عن الذنوب والآن نتكلم عن آثار الذنوب، فكما أن لمخالفة الإرشادات الطبية آثارا وعوارض، كذلك في الركون إلى معاصي اللهَّ جل وعلا آثارها أيضاً، والآثار على كيفيات ونقسمها على حسب تتبع ما ورد عن المعصومين عليهم السلام فيها إلى أربعة موارد:

أ- أثر الذنوب في العقل.

ب-أثر الذنوب في الحياة الدنيا.

ج- أثر الذنوب في الإيمان.

د-أثر الذنوب في الآخرة.

أ- تأثير الذنوب في العقل:

إن للذنوب أثراً مباشراً في العقل لا يُلتفت إليه عادة، إلا بعد التأمل ومراجعة الإنسان حاله قبل وبعد ارتكاب الذنب وكذلك بعد التوبة منه، فكما أن المرآة تتسخ

(١) سورة الشورى: آية ٣٠.

بسبب الغبار فلا يرى فيها شيء، فكذلك العقل بسبب الذنوب تحصل فيه حجب وأغطية فلا يستطيع أن يدرك شيئا، فلو أن الإنسان لم يعص اللهَّ تعالى أربعين يوماً لجرت ينابيع الحكمة على لسانه كما في الخبر[1].

فالذنوب تمنع من الإدراك والفهم ولذا لم يكن لقمان الحكيم حكيماً إلا لصفاء سريرته، وفي المقام قال الرسول الأكرم ﷺ: (من قارف ذنباً فارقه عقل لا يرجع إليه أبداً)[2].

ومن هذا نفهم أهمية اجتناب الذنوب على الحياة الإيمانية للإنسان، إذ أن العقل كما في تعريف المعصومين عليهم السلام هو ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، ولذا فمن زاد عقله زاد إيمانه، ومن قارف ذنباً نقص عقله وقل إيمانه بتبع ذلك، فمقارفة الذنوب تؤدي بالإنسان تدريجياً إلى قلة الإيمان وقلة الاعتقاد بعالم الغيب حتى يفقد شيئاً فشيئاً جملة من الاعتقادات المهمة في حياته،

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١ ص٤٧.

(٢) المحجة البيضاء في إحياء الإحياء للفيض الكاشاني: ج ٨ ص٠٦١.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهَّ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

ب - تأثير الذنوب في الحياة الدنيا:

إن تأثير المعاصي في الحياة الدنيا كبير جداً فكل مرض وبلية ومشكلة هي بسبب ذنب من الذنوب، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (أما أنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول اللهَّ عز وجل في كتابه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ ثم قال: وما يعفو اللهَّ أكثر مما يؤاخذ به)[2].

بل أعظم من ذلك فحتى الخدشة التي تصيب الجلد والكبوة في الأرض بسبب ذنب، فعن الإمام علي عليه السلام قال: (توقوا الذنوب فما من بلية ولا نقص رزق إلا بذنب حتى الخدش والكبوة والمصيبة، قال اللهَّ عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

(١) سورة الروم: آية ١٠.

(٢) الكافي: ج٢ ص٩٦٢.

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1].

بل أنه قد يُبتلى الإنسان في زوجته، أو تبتلى الزوجة في زوجها، أو يبتلى كل منهما في أبنائهما وما هو إلا بسبب الذنوب، فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (قد يبتلي اللهَّ المؤمن بالبلية في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله وتلا هذه الآية: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾؛ وضم يده ثلاث مرات ويقول: ويعفو عن كثير)[2].

ومن الآثار المهمة والخطيرة للذنوب في الحياة الدنيا هو تقريب أجل الإنسان وإنقاص عمره، ففي دعاء الإمام الكاظم عليه السلام في أول شهر رمضان: (اللهم اغفر لي الذنوب التي تعجل الفناء)[3]، فاللهَّ تعالى مثلاً قرر لإنسان ما أن يعيش مائة سنة فإذا أذنب نقصت سنة وإذا اغتاب مثلاً نقصت مقدارا آخر وهكذا حتى يموت في سن

---

(١) الخصال: ص٦١٦.

(٢) تحف العقول: ص٤١٢.

(٣) الكافي ج٤ ص٢٧، ومصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص٤٠٦.

مبكرة وما هو إلا بسبب ذنوبه، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال)[١].

هذا ولكن الله بمقتضى رحمته الواسعة يشمل المؤمن بلطفه وعنايته فيتعقبه بالبلية بعد الذنب ليطهره منه في الدنيا قبل الآخرة، حتى لا تصعد روحه إلى ربها ولا يأتي يوم القيامة إلا خالياً من الذنوب.

فعن الإمام الرضا عليه السلام قال: (المرض للمؤمن تطهير ورحمة وللكافر تعذيب ولعنة، وإن المرض لا يزال بالمؤمن حتى لا يكون عليه ذنب)[٢].

وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: (السقم يمحو الذنوب)[٣].

فلا يحزن من يصاب بالعاهات فهو وإن تألم ولكن هذا الألم لا يقاس بألم الآخرة فليفرح وليحمد اللهَّ على حاله وليطلب العون والمغفرة، ولذا كان الإمام زين

(١) الكافي: ج٤: ص٥٠٣.

(٢) ثواب الأعمال: ص٣٩١.

(٣) مستدرك الوسائل: ج٢ ص٥٦.

العابدين عليه السلام إذا رأى المريض قد برئ قال له: (ليهنئك الطهر من الذنوب فاستأنف العمل)[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: ما من عبد أريد أن ادخله الجنة إلا ابتليته في جسده فإن كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا شددت عليه عند موته حتى يأتيني ولا ذنب له، ثم ادخله الجنة)[٢].

بل إن الإنسان في بعض الأحيان يشعر بحزن ولا يعرف سببه وما هو إلا ذنب أذنبه فأراد اللهَّ تعالى عن طريق الحزن التكفير عنه، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: (إذا كثرت ذنوب المؤمن ولم يكن له من العمل ما يكفرها، ابتلاه اللهَّ بالحزن ليكفرها به عنه)[٣].

وعن عمرو بن جميع قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (إن العبد المؤمن ليهتم في الدنيا حتى يخرج منها ولا ذنب عليه)[٤].

---

(١) أمالي الشيخ المفيد: ص٥٣.

(٢) الكافي: ج٢، ص٦٤٤.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٠ ص٧٥١.

(٤) الكافي: ج٢، ص٥٤٤.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (لا يزال الهم والغم بالمؤمن حتى ما يدع له من ذنب)[١].

بل أعظم من ذلك بعض الأحيان يرى كوابيس وأموراً مخيفة في نومه وما هي إلا كفارة لذنوبه فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (إن المؤمن ليهول عليه في منامه فتغفر له ذنوبه وإنه ليمتهن[٢] في بدنه فتغفر له ذنوبه)[٣].

ج- تأثير الذنوب في الإيمان:

وأما تأثير المعاصي على الإيمان فكما أن الطاعة مقربة إلى الله تعالى وجالبة لرضاه فكذلك المعاصي بضدها مبعدة عنه ومجلبة لسخطه، والذنب على الذنب كالحطب الذي في النار كلما تجمع ازداد وهج النار، فبالذنب تشتد المعاصي وباشتداد المعاصي يخرج الإنسان من موضع عناية اللهَّ تبارك وتعالى، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان أبي عليه السلام يقول: (ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة،

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٤٤.

(٢) مهنه كمنعه ونصره مهنا ومهنة : خدمه وضربه وجهده وامتهنه : استعمله للمهنة فامتهن هو لازم متعد والمهين : الحقير الضعيف

(٣) أمالي الشيخ الصدوق: ص٩٨٥.

إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله)[١].

وعنه عليه السلام أنه قال: (إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فان تاب انمحت وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً)[٢]. فيسلب الإيمان حينئذ ويموت على الكفر والعياذ بالله.

د- تأثير الذنوب في القرب الإلهي والاستعداد للآخرة:

إن مقارفة الذنوب تؤثر في مقام القرب الإلهي وتمنع من الاستعداد للآخرة والذنوب سبب رئيس لنسيان اللهَّ وعدم الاستعداد للقائه، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم)[٣].

وليس الأمر مقتصراً على هذا الحد وهو عدم التوفيق للطاعة بل في يوم القيامة يعاني الأَمَرّين، ويعاين آثار ما فعل متجسدا فيتألم ويندم ولكن لات حين مندم، فعن

(١) الكافي: ج٢ ص٨٦٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٧٢.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٢.

الرسول الأعظم ﷺ قال: (يا بن مسعود لا تحقرن ذنباً ولا تصغرنه واجتنب الكبائر فإن العبد إذا نظر يوم القيامة إلى ذنوبه دمعت عيناه قيحاً ودماً يقول اللهَّ تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**﴾)[1].

وقد ورد في الخبر: (إنّه ينشر للعبد كلّ يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوّة نورا من حسناته الَّتي عملها في تلك الساعة فينالـه من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار الَّتي هي وسيلة عند الملك الجبّار ما لو وزّع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار، ثمّ يفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشّاه ظلامها وهي الساعة الَّتي عصى اللهَّ فيها فينالـه من الهول والفزع ما لو قسّم على أهل الجنّة لتنغّص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسرّه ولا ما يسوؤه)[2].

(١) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٥٣.

(٢) المحجة البيضاء للفيض الكاشاني: ج٨، ص٢٥١.

وسائل علاج الذنوب

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢).

كما تجدر المسارعة إلى علاج الجسم من الأمراض قبل استفحالها، وتطهيره من الجراثيم قبل أن يضعف الجسم عن مكافحتها، كذلك تجب المبادرة إلى تصفية النفس وتطهيرها من أضرار الذنوب ودنس الآثام قبل تفاقم غوائلها وعسر تداركها.

وكما تعالج الأمراض البدنية بتجرع العقاقير الكريهة الرائحة والمرة المذاق والاحتماء عن المطاعم الشهية الضارة كذلك تعالج الذنوب بتحمل أعباء التوبة والإقلاع عن الشهوات العارمة والأهواء الجامحة ليأمن التائب أخطارها ومآسيها الدنيوية والأخروية.

فالتوبة هي الرجوع إلى الله تعالى بقلب صادق وبذل كل ما يرفع سخط الرحمن، فالإنسان لا يعلم متى سيلاقي

---

(١) سورة هود: آية ١١٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

ربه هل في شبابه أم في هرمه هل في صحته أم في سقمه هل حال طاعته أم حال معصيته فلذا يجب على الإنسان العاقل أن يتوب إلى الله تعالى ولا يمني نفسه بغد وبعد غد بل يبادر في شبابه قبل هرمه وفي صحته قبل سقمه وهذا أمر طبيعي للمؤمن الذي يوقن بالآخرة والجزاء، وأن حال الدنيا مَعْبَر لا مستقر، فمن نظر بهذا المنظار فلن يعصيَ الله تعالى طرفة عين أبداً، ولذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (تفكر ساعة خير من عبادة سنة قال الله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾)[1]، وسيأتي في الفصل اللاحق تفصيل الكلام عن التوبة.

الآثار العامّة على المجتمع لانتشار المعاصي[2]:

هناك آثار عامة على المجتمع تنشأ من ارتكاب أو انتشار المعاصي أيًّا كان نوعها، وهناك آثار خاصة تنشأ عن ارتكاب معاصي بعينها، ومن هنا سوف نتحدث فيما يأتي عن آثار المعاصي على المجتمع بشكل مختصر،

(١) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣٨١.

(٢) هذا الموضوع بطوله مأخوذ من مقال موجود في الإنترنت للشيخ علي رحمة

فنقول:

إن للمعاصي آثارًا عامة كبيرة على مرتكبها أو على أسرتهِ ومجتمعهِ وأمَّتهِ أو على مظاهر الحياة الأخرى كالأرض والسماء والبحرِ والدوابِّ والطير وغيرها، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1].

ومن هذا اللون من الآثار:

١. هلاك الأمم:

وقد كان نزول الهلاك العام بسبب المعاصي جارٍ في الأمم السابقة قبل الإسلام، فأهلك الله قوم نوح بالطوفان، وقوم هود بالريح العقيم، وقوم صالح بالصيحة، وقوم لوط بقلب قريتهم وإمطارهم بحجارة من سجيل، وقوم شعيب بالرجفة والزلزال، وأهلك الله تعالى فرعون وجنوده بالغرق، وغيرهم بغير ذلك من ألوان العذاب.

قال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى* وَثَمُودَ فَمَا**

(١) سورة الروم: آية ١٤.

أَبْقَى* وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى* وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى* فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا* فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا* وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا* وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا* وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣].

وقد رفع الله تعالى عذاب الاستئصال والهلاك العام عن هذه الأمة رحمة منه سبحانه وتعالى بخاتم النبيّين وسيّد المرسلين النبيّ الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ وأهل بيته

(١) سورة النجم: آية٥٠-٤٥.

(٢) سورة الفرقان: آية٥٣-٩٣.

(٣) سورة العنكبوت: آية٤٠.

المعصومين عليهم السلام، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام -لما سئل عن علة احتياج الناس إلى النبيّ والإمام- قال عليه السلام: (لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبيّ أو إمام)[2].

ولكن لا يمنع هذا من نزول عذاب الاستئصال بشكل جزئي بسبب المعاصي، على بعض الطغاة والجبابرة مع أعوانهم والراضين بفعلهم، وهذا ما يخبر به التاريخ ويؤيّده الواقع وتشهد له الروايات.

٢. ظهور الأمراض المستعصية والأوبئة الفتّاكة:

فالطاعون وكثير من الأمراض الفتاكة خصوصًا المعدية منها كالإيدز وافلونزا الطيور وجنون البقر وغيرها -في كثير من الأحيان- عقاب من الله تعالى بما كسبت أيدي الناس من الآثام والمعاصي.

---

(١) سورة الأنفال: آية٣٣.

(٢) ميزان الحكمة: ج١، ص٧١١.

عن الإمام الرضا عليه السلام: (كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يحتسبون)[1].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (... لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوها إلا وظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا،...)[2].

فالذنوب أسباب للأمراض والأوجاع لعموم الآية الشريفة: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾[3].

في الحديث عن الصادق عليه السلام: (أما إنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾، ثمّ قال: وما يعفو الله أكثر ممّا

---

(١) ميزان الحكمة: ج٣، ص٥٩٩.

(٢) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال للصدوق: ص٢٥٢.

(٣) سورة الشورى: آية٣٠.

يؤاخذ به)[١].

وعن رسول الله ﷺ: (ما اختلج عرق ولا عثرت قدم إلا بما قدّمت أيديكم، وما يعفو الله عنه أكثر)[٢].

كثرة موت الفجأة:

والإحساس بازدياد حالات موت الفجأة -خصوصًا في زماننا الذي كثر فيه ارتكاب المعاصي- يشعر به كل أحد، لكثرة ما يراه الناس ويسمعون به من هذه الحالات، التي تتوزّع على جميع الفئات العمرية وتتركّز في الشباب من غير سابق إنذار، ويختطفهم الموت وهم في عمر الزهور.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (... لا يأمن البيات من عمل السيئات)[٣].

بل إن السيئات أيضًا تعمل على بتر الأعمار وإنقاصها، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (من يموت

---

(١) ميزان الحكمة: ج٣، ص٥٩٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٠٠١.

بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال)[١]، وقد يكون موت الفجأة مظهرا من مظاهر نقص الأعمار وليس شيئًا آخر.

والأخطر في هذا البلاء أنه يُسلَّط على أفراد المجتمع بشكل عام، ولا يقتصر على العصاة، بل يعمّ الجميع كأثر وضعي من آثار كثرة الذنوب وانتشار المعاصي، وقد عُدّ كثرة موت الفجأة من علامات قرب الساعة، وهو وقت تكثر فيه المعاصي وتنتشر.

عن النبيّ ﷺ: (من أشراط الساعة أن يفشو الفالج، وموت الفجأة)[٢].

٣. سلب النعمة:

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان نعمًا كثيرة ظاهرة وباطنة، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٣].

وقال عزّ من قائل: ﴿... **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً**

---

(١) ميزان الحكمة: ج٣، ص٥٩٩.

(٢) المصدر السابق: ج٧، ص٧٧٩٢.

(٣) سورة النحل: آية٨١.

وَبَاطِنَةً...﴾[١].

وتعدّ من أكبر نعم الله تعالى على الإنسان، نعمة الإيجاد والعقل ونعمة الإيمان والدين ونعمة الأمان والعافية والرزق ووو... إلى ما لا حصّر لها ولا عد.

والأصل في هذه النعم أن تبقى وتدوم، فإنّ المقتضي لحدوثها -وهو سعة رحمة الله وجوده وعطائه الذي لا نفاد له- يقتضي بقاءها أيضًا، إلا أنّها قد تُسلب وتزول بحدوث المانع، ومن أبرز أسباب منع بقاء النعم المعاصي وعدم المبالاة بارتكاب الذنوب.

قال الإمام الصادق عليه السلام: (كان أبي عليه السلام يقول: إنّ الله قضى قضاءً حتمًا ألا ينعم على العبد بنعمةٍ فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنبًا يستحق بذلك النقمة)[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (ما زالت نعمةٌ ولا نضارةُ عيشٍ إلا بذنوب اجترحوا، إنّ الله ليس بظلام للعبيد)[٣].

---

(١) سورة لقمان: آية٢٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣٧٢.

(٣) ميزان الحكمة: ج٣، ص٤٩٩.

٤. منع استجابة الدعاء:

كثيراً ما يقف الإنسان المؤمن متحيّرًا تجاه عدم إجابة الدعاء أو تأخّر الإجابة، مع كثرة ما ورد في شأن الدعاء وأثره الكبير والسريع في تغيير الأمور ودفع البلاءات المبرمة، ولكنه يغفل عن جانب آخر في المقام، وهو معوقات إجابة الدعاء وأسباب حبسه، والتي على رأسها، معاصي العباد وذنوبهم.

في دعاء كميل عليه السلام: (اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء).

وعن زين العابدين عليه السلام: (والذنوب التي ترد الدعاء: سوء النيّة، وخبث السريرة، والنفاق، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرّب إلى الله عزّ وجلّ بالبرّ والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول)[٤].

قال الإمام الباقر عليه السلام: (إنّ العبد يسأل الله الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب، فيذنب العبد

(٤) معاني الأخبار: ص١٧٢.

ذنبًا، فيقول الله تبارك وتعالى للملك: لا تقض حاجته وأحرمه إيّاها، فإنّه تعرّض لسخطي واستوجب الحرمان منّي)[1].

٥. الفتور واستثقال العبادة:

إنّ إقبال العبد على العبادات من نوافل وأذكار وأدعية وتلاوة وغيرها، يمثل مستوى من مستويات الهداية والتوفيق.

وإذا حلّت الهداية قلبًا نشطت للعبادة الأعضاء

ونرى أنّ الكثير من الناس يعيشون الحرمان من هذه الهداية، مع علمهم بفضل العبادة وأثرها الإيجابي الكبير في حياة العابد، وما له من منزلة رفيعة عند الله تعالى، فما الذي يثقل عليهم العبادات والطاعات؟ وما الذي يحيل بينهم وبين المواظبة عليها؟

الجواب: إنّ الذنوب والمعاصي هي أكثر الأسباب تأثيراً في إدبار القلب عن العبادة بمعناها الحقيقي، والمانع الأكبر من التنوّر بهذه الهداية.

---

(١) الكافي: ج٣، ص٣٧٢.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي قد حرمت الصلاة بالليل. فقال عليه السلام: (أنت رجل قد قيدتك ذنوبك)[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إنّ الرجل يذنب الذنب، فيحرم صلاة الليل، وإنّ العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم)[٢].

بل إنّ المعاصي والإصرار عليها تحول دون إدراك الحقائق الواضحة، وتوسع ما بين العاصي وربّه من مراحل الهجران والبعد، إلى أن تصل إلى مرحلة الكفر والتكذيب بآيات الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٣].

﴿**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ**﴾[٤].

قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (فإنّ المعاصي تستولي

---

(١) علل الشرائع: ج٢، ص١٥.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٢.

(٣) سورة المطففين: آية٤١.

(٤) سورة الروم: آية١١.

الخذلان على صاحبها حتى توقعه في ردّ ولاية وصي رسول الله ﷺ ودفع نبوة نبي الله، ولا تزال أيضًا بذلك حتى توقعه في دفع توحيد الله والإلحاد في دين الله).

٦. الفقر وقطع الرزق:

قال الإمام الباقر عليه السلام: (إنّ العبد ليذنب الذّنب فيزوي عنه الرزق)[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (احذروا الذنوب، فإنّ العبد ليذنب فيحبس عنه الرزق)[٢].

والفقر كما يقع على الأفراد والأسر، يقع أيضًا على الدول والأقاليم والقارات، فتوصف الدولة أو الإقليم أو القارة بالفقر، وهذا اللون من الفقر أشدّ بلاء وأكثر ضررًا، وتنعكس آثاره سلبًا على مستوى التعليم والرعاية الصحية والتربوية، فضلاً عن الغذاء والسكن.

وفي الوقت الذي تكون كثرة المعاصي والانحرافات من جملة أسباب الفقر، يؤدي الفقر -بعد أن يتمكن من

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٠.

(٢) الخصال: ص٢٠٦.

المجتمع- إلى توسيع رقعة الجرائم والانحرافات الأخلاقية والاجتماعية.

ففي الرواية عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (كاد الفقر أن يكون كفرًا)[1].

٧. تسلّط الظلمة والأشرار:

وهذه نتيجة طبيعية لعاقبة مجتمع تكثر فيه المنكرات والتجاهر بالمحرّمات، ولا تجد من ينهى عنها أو يقف في طريق انتشارها.

وما نراه اليوم وقبل اليوم من تسلّط الظلمة والطغاة على رقاب المسلمين، سببه الأكبر والأهم: البعد عن تعاليم شرع الله تعالى، وارتكاب المنحرفين والأشرار للمعاصي والتجاوزات الشرعية، مع عدم تصدّي الآخرين للقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات.

وهذا يعدّ -في حدّ ذاته- بمنزلة التواطؤ على إخفاء الفضيلة ونشر الرذيلة من الفريقين، فالأشرار يرتكبون، والأخيار يداهنون، وهو يمثّل منزلة من منازل الخروج

(١) ميزان الحكمة: ج٦، ص٨٣٤٢.

من ولاية الله تعالى والدخول في ولاية الطاغوت وهيمنته، فيتسلّط الأشرار على الناس، ويدعو الأخيار فلا يستجاب لهم، جزاءً بما كانوا يكسبون.

ففي الرواية عن الإمام الكاظم عليه السلام: (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم)[1].

٨. سلب الأمان من الأوطان:

قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[2].

عن تفسير القمي: نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له البليان (الثرثار)، وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير، وكانوا يستنجون بالعجين ويقولون هذا ألين، فكفروا بأنعم الله واستخفوا بنعمة الله، فحبس الله عليهم البليان (الثرثار) فجدبوا حتى أحوجهم الله إلى ما كانوا يستنجون

---

(١) ميزان الحكمة: ج٥، ص٥٤٩١.

(٢) سورة النحل: آية٢١١.

بـه حتـى كانـوا يتقاسـمون عليـه[1].

ولا شـك أنّ الاسـتقرار الأمنـي مـن أكـبر نعـم الله تعـالى عـلى الشـعوب، ولأجلـه ترصـد الميزانيـات الضخمـة، والأمـوال الطائلـة، إذ مـع فقـده تتحـول القـرى والمـدن إلى سـاحات أشـباح، لا أحـد مـن النـاس يأمـن عـلى مالـه وعِرضـه ونفسـه، ويتوقـف المبدعـون وأهـل الحِـرَفِ عـن الإنتـاج والتطويـر.

ولانتشـار المعـاصي والخطايـا دور كبـير فيـما يعيشـه العـالم اليـوم مـن الحـروب الطاحنـة والعمليـات الإرهابيـة المنظمـة وغـير المنظمـة التـي تنـال النـاس قتـلاً وسـلبًا وخطفًـا وتهجـيرًا وتنكيـلاً، حتـى أن الإنسـان في بعـض البـلاد يـرى أنّ بطـن الأرض خـير لـه مـن ظهرهـا، وهـذه علامـة مـن علامـات آخـر الزمـان، عـلى مـا ورد في الروايـات.

٩. نزع البركة من الأشياء:

البركـة بالحقيقـة هـي الخـير المسـتقر في الـشيء الـلازم لـه، كالبركـة في النسـل وهـي كثـرة الأعقـاب أو بقـاء الذكـر بهـم خالـدًا، والبركـة في الطعـام أن يُشـبَعَ بـه خلـق كثـير مثـلاً،

(١) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص١٩.

والبركة في الوقت أن يَسَعَ من العمل ما ليس في سعة مثله أن يسعه[١].

وعن الرضا عليه السلام: (أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّ من الأنبياء: إذا أُطعتُ رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية)[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (بالعدل تتضاعف البركات)[٣].

وعلى العكس من ذلك إذا تجاوز الناس حدود الشرع، وانتشر بينهم الكفر والفسوق والعصيان، فإنّ الأشياء تفقد بركتها وخيرها المودع فيها.

قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (إذا ظهرت الجنايات ارتفعت البركات)[٥].

---

(١) تفسير الميزان: ج٧، ص١٨٢.

(٢) ميزان الحكمة: ج١، ص٦٥٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) سورة الأعراف: آية٩٦.

(٥) ميزان الحكمة: ج١، ص٧٥٢.

خلاصة الكلام

وبالجملة فهناك معادلة وقانون إلهي في الدنيا يربط بين الذنب الذي يذنبه العبد وبين البلاء الذي يمتحن به، فبكل ذنب بلاء ولذا كثرت الأمراض بكثرة الذنوب وظهرت أنواع جديدة منها، وما هو إلا بسبب الذنوب، فعن الإمام الرضا عليه السلام قال: (كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث اللهَّ لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون)[1].

بل إن بعض الذنوب تسلب بركات اللهَّ ورحمته، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (كان أبي يقول: إن اللهَّ قضى قضاءً حتماً لا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة)[2].

فهذا صك ضمان من اللهَّ تعالى بعدم سلب النعمة من العبد حتى يعصي العبد ويستحق النقمة من الله، فلا تعصوا الله لكي لا تسلب منكم النعم، ولكي تنزل بركاته عليكم، فإن الإنسان إذا عصى اللهَّ منع عنه ما أراد أن يعطيه من مال أو ولد أو جاه أو صحة أو غيرها،

---

(١) المصدر السابق: ج١١ ص٠٤٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج٥١ ص٣٠٣.

فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (إن العبد يسأل اللهَّ الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً فيقول اللهَّ تبارك وتعالى للملك: لا تقضي حاجته واحرمه إياها، فإنه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان مني)[1].

وهنالك نوع من الذنوب مفعولها سريع فيعاقب الإنسان بها في الدنيا فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: (ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها ولا تؤخر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان)[2].

بل وهنالك ذنوب لها آثارها الخاصة وإليك هذا الخبر فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (الذنوب التي تغير النعم البغي والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تنزل النقم الظلم، والتي تهتك الستر شرب الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تعجل الفناء قطيعة الرحم، والتي ترد الدعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين)[3].

---

(١) الكافي: ج٢ ص٢٧٢.

(٢) أمالي الشيخ المفيد: ٨٣٢.

(٣) الكافي: ج٢ ص٨٤٤.

ولا تظنن أن للمعصية حلاوة حقيقية فإن ما يظهر منها من لذة موهومة سرعان ما تتلاشى ويبقى العقاب، ففي الدنيا ذل، كما عن الإمام علي عليه السلام قال: (من تلذذ بمعاصي اللهَّ أورثه اللهَّ ذلاً)[١].

وفي الآخرة أليم العقاب، كما ورد عنه عليه السلام أنه قال: (حلاوة المعصية يفسدها ألم العقوبة)[٢].

وهل نتصور أن إنساناً يتلذذ بسخط اللهَّ تعالى؟ نعم مَن نسي اللهَّ تعالى أنساه اللهَّ نفسه فيغرق في بحر الذنوب والآثام.

وهنا نعرض مجموعة من الأحاديث تلخص حال الإنسان في الحياة الدنيا بالنسبة إلى الذنوب.

الأول: عن الإمام الصادق عليه السلام: (من أراد عزا بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته)[٣].

الثاني: في الحديث القدسي: (عبدي أطعني حتى أجعلك

---

(١) موسوعة أحاديث أهل البيت (عليهم السلام): ج٤ ص٧٤.

(٢) ميزان الحكمة: ج٢ ص٤٩٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٨٧، ص٢٩١.

مِثلي أو مَثَلي أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون)[١]، وفي نص أخر: (عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون)[٢].

والثالث: عن حماد بن بشير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: (... ما تقرب إليّ عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددي عن موت المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته)[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٠١، ص٤٦١.

(٢) التفسير الكاشف: ج٦، ص٠٢٥.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٥٣.

الفصل الثاني

التوبة

معنى التوبة لغة
حقيقة التوبة
الإنابة من مراتب التوبة
الشوق إلى التوبة
فضيلة التوبة وثمارها
وجوب التوبة وفوريتها
مخاطر تأخير التوبة
من تُقبل توبته؟
أركان التوبة وشروطها
الطريق العملي للتوبة
معاودة الذنب بعد التوبة

معنى التوبة لغة

التَّوْبـةُ في اللّغـة: الرُّجُـوعُ مـن الذَّنْـبِ، يقـال: تـابَ إلى اللهَّ يَتُـوبُ تَوْبـاً وتَوْبـةً ومَتابـاً: أَنـابَ ورَجَـعَ عـن المَعْصيـةِ إلى الطاعـةِ، واسْـتَتَبْتُ فُلانـاً: عَرَضْـتُ عليـه التَّوْبَـةَ ممـا اقْـتَرَف، أَي: الرُّجُـوعَ والنَّـدَمَ عـلى مـا فَـرَطَ منـه، واسْـتَتابه: سـأَلَه أَن يَتُـوبَ[1].

وأمـا التّوبـة في الاصطـلاح الشّرعـي: فقـد اختلـف الكلـمات في معناهـا عـلى أقـوال: فقيـل: النّـدم عـلى الذّنـب لكونـه ذنبـاً[2]، وقـد يـزاد بالإضافـة إلى مـا تقـدم هـذا القيـد: مـع العـزم عـلى تـرك المعـاودة أبـداً، والظّاهـر: أنّ هـذا العـزم لازم لذلـك النّـدم غـير منفـك عنـه[3]، وقيـل: النّـدم عـلى المعصية، لكونهـا معصيـة، والعـزم عـلى تـرك المعـاودة في المسـتقبل، لأنّ تـرك العـزم يكشـف عـن نفـي النّـدم[4].

فيفهم من كل ما تقدم أن أركان التوبة ثلاثة:

(١) لسان العرب: ج١، ص٣٣٢.

(٢) رياض السّالكين: ص٤٠٤ ، ومجمع البحرين: ح١، ص٠٠٣ .

(٣) جواهر الكلام: ج١٤، ص٤١١.

(٤) بحار الأنوار: ج٦، ص٣٤.

١. النّدم على فعل المعصية لكونها معصية.

٢. العزم على ترك المعاودة.

٣. وجوب تدارك ما سبق من التّقصير في الأعمال إن أمكن.

حقيقة التوبة

لا تتحقق التوبة الصادقة النصوح إلا بعد تبلورها، واجتيازها أطواراً ثلاثة:

فالطور الأول: هو طور يَقظَة الضمير، وشعور المذنب بالأسى والندم على معصية اللهّ تعالى، وتعرضه لسخطه وعقابه، فإذا امتلأت نفس المذنب بهذا الشعور الواعي انتقل إلى:

الطور الثاني: وهو طور الرجوع إلى اللهّ عز وجل، والعزم الصادق على طاعته، ونبذ عصيانه، فإذا ما أنس بذلك تحول إلى:

الطور الثالث: وهو طور تصفية النفس من رواسب الذنوب، وتلافي سيئاتها بالأعمال الصالحة الباعثة على

توفير رصيد الحسنات، وتلاشي السيئات، وبذلك تتحقق التوبة الصادقة النصوح.

وليست التوبة هزلاً عابثاً، ولقلقةً يتشدق بها اللسان، وإنما هي: الرجوع الصادق إلى اللهّ تعالى، ومجافاة عصيانه بعزم وتصميم قويين، والمستغفر بلسانه وهو سادر في المعاصي مستهتر كذّاب، كما قال الإمام الرضا عليه السلام: (المستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربه)[1].

الإنابة من مراتب التوبة

الإِنابةُ لغة: الرجوعُ إِلى اللهَّ بالتَّوبة.

وفي التنزيل العزيز: ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيهِ**﴾، أَي: راجعين إِلى ما أَمَرَ به، غير خارجين عن شيءٍ من أَمرِه.

وقوله عز وجل: ﴿**وأَنِيبُوا إِلى ربكم وأَسْلِمُوا له**﴾، أَي: تُوبوا إِليه وارْجِعُوا، وقيل: إِنها نزلتْ في قوم فُتِنُوا في دِينِهم، وعُذِّبُوا بمكة، فرجَعُوا عن الإِسلام، فقيل: إِنَّ هؤُلاء لا يُغْفَرُ لهم بعد رُجوعهم عن الإِسلام، فأَعْلم اللهَّ

(١) الكافي: ج٢ ص٤٠٥.

عز وجل، أنهم إن تابوا وأسلموا، غَفَرَ لهم[١].

اعلم أن الإنابة هي الرجوع عن كل شيء مما سوى الله، والإقبال على الله تعالى بالسر والعلن، والقول والفعل، حتى يكون دائما في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هي الرجوع عن الذنب إلى الله، والإنابة هي الرجوع عن المباحات أيضا إليه سبحانه، فهي من المقامات العالية والمنازل السامية، قال الله سبحانه: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**﴾[٣]، وقال عز وجل: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ* هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ* ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ* لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾[٤].

وإنابة العبد تتم بثلاثة أمور:

---

(١) لسان العرب: ج١، ص٥٧٧.

(٢) سورة الزمر: آية٥٤.

(٣) سورة غافر: آية٣١.

(٤) سورة ق: آية١٣ – ٥٣.

الأول: أن يتوجه إليه بتمام باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره.

الثاني: ألا يكون خاليا عن ذكره وذكر نعمته ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه.

الثالث: أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

الشوق إلى التوبة

تتلخص النصائح الباعثة على التوبة والمشوقة إليها فيما يلي:

١- أن يتذكر المذنب ما صوَّرته الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، من غوائل الذنوب، ومآسيها المادية والروحية، في عاجل الحياة وآجلها، وما توعد اللهّ عليها من صنوف التأديب وألوان العقاب.

٢- أن يستعرض فضائل التوبة ومآثر التائبين، وما حباهم اللهّ به من كريم العفو، وجزيل الأجر، وسمو العناية واللطف.

وكفى بهاتين النصيحتين تشويقاً إلى التوبة، وتحريضاً عليها، ولا يرغب عنها إلا أحمق بليد، أو ضعيف الإيمان والبصيرة.

فضيلة التوبة وثمارها

التوبة أول مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى رب العالمين، مدحها عظيم، وفضلها جسيم، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾(١).

وناهيك في فضلها أنّها بلسم الذنوب، وسفينة النجاة، وصمام الأمن من سخط اللهّ تعالى وعقابه.

وقد أبَت العناية الإلهية أن تُهمل العصاة يتخبطون في دياجير الذنوب، ومجاهل العصيان، دون أن يسعهم الله بعطفه السامي، وعفوه الكريم، فشوَّقهم إلى الإنابة، ومهَّد لهم التوبة، فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ**

(١) سورة البقرة: آية٢٢٢.

(٢) سورة الأنعام: آية٥٤.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له)(٣).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: (إن الله تعالى أشدُّ فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها)(٤).

وعنه عليه السلام: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ)(٥).

---

(١) سورة الزمر: آية٣٥.

(٢) سورة نوح: آية١٠ – ٢١.

(٣) جامع السعادات: ج٣ ص١٥.

(٤) الكافي: ج٢ ص٥٣٤.

(٥) المصدر السابق.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (إن الله يحب من عباده المفتن التواب)[١]. يعني كثير الذنب كثير التوبة.

وعنه عليه السلام: (إذا تاب العبد توبة نصوحا، أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ويوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)[٢].

وعنه عليه السلام: (إن الله عز وجل أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها: قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾، وقوله: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً**

(١) الكافي: ج٢ ص٢٣٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٠٣٤.

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ* رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وقوله: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِّ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُّ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً* إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُّ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُّ غَفُوراً رَّحِيماً﴾)[1].

وقال أبو الحسن الكاظم عليه السلام: (أحب العباد إلى الله المنيبون التوابون)[2].

وعن أبي عبد اللهّ أو أبي جعفر عليهما السلام قال: (إن آدم قال: يا رب سلّطت عليّ الشيطان وأجريته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئاً.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٢٣٤.

(٢) جامع السعادات: ج٣ ص٢٥.

فقال: يا آدم جعلتُ لك أنَّ مَنْ همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة، ومَنْ همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة، وإن هو عملها كتبت له عشراً.

قال: يا رب زدني.

قال: جعلت لك أنَّ مَنْ عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له.

قال: يا رب زدني.

قال: جعلت لهم التوبة - أو قال: بسطت لهم التوبة- حتى تبلغ النفس هذه. قال: يا رب حسبي)[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجَّلَه اللهّ سبع ساعات، فإن استغفر اللهّ لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإنَّ المؤمنَ ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينساه من ساعته)[2].

---

(١) الكافي: ج٢ ص٤٤٠.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٤٣٧.

وعنه عليه السلام: (ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: أستغفر اللهّ الذي لا إله إلا هو الحي القيّوم بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب عليّ إلا غفرها اللهّ له، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة)[1].

وجوب التوبة وفوريتها

لا ريب في وجوب التوبة، لدلالة العقل والنقل على وجوبها:

أما العقل: فمن بديهياته ضرورة التوقي والتحرز عن موجبات الأضرار والأخطار الموجبة لشقاء الإنسان وهلاكه، لذلك وجب التحصن بالتوبة، والتحرز بها من غوائل الذنوب وآثارها السيئة، في عاجل الحياة وآجلها.

وأما النقل: فقد فرضتها أوامر القرآن والسنة فرضاً محتّماً، وشوقت إليها بألوان التشويق والتيسير.

عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول اللهّ

(١) وسائل الشيعة: ج٥١ ص٣٣٣.

ﷺ: (إنّ لله عز وجل فضولاً من رزقه يُنحله من يشاء من خلقه، والله باسط يديه عند كل فجر لمذنب الليل هل يتوب فيغفر له، ويبسط يديه عند مغيب الشمس لمذنب النهار هل يتوب فيغفر له)[1].

وعن معاوية ابن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ويوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)[2].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من

(١) ثواب الأعمال: ص٩٧١.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٣٠.

الذنوب وعاد في التوبة؟! فقال: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟

قلت: فإنه فعل ذلك مرارا، يذنب ثم يتوب ويستغفر الله، فقال: كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة وإن الله غفور رحيم، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله)[1].

مخاطر تأخير التوبة

إن لتأخير التوبة وتسويف الإقلاع عن الذنوب مخاطر كبيرة، نذكر منها:

أولاً: إن تأخير التوبة مدعاة لأن يخسر الإنسان لطف الله تعالى في محو المعصية والعفو عن الذنب عاجلاً، فالكثير من النصوص الدينية تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما يمحو الذنب عن عباده إذا ما سارعوا إلى التوبة حتى كأنهم لا ذنب لهم، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (إن العبد إذا أذنب ذنبا أجّل من غدوة إلى الليل، فإن

(١) الكافي: ج٢، ص٤٣٤.

استغفر الله لم يكتب عليه)[١].

وكأن في ذلك - بمقتضى قول الإمام عليه السلام - فرصة للإنسان للمراجعة والتوبة قبل أن تكتب عليه معاصيه.

وعنه عليه السلام: (العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له)[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه: (إن قارفت سيئة فعجل محوها بالتوبة)[٣].

ثانياً: ينطوي تأجيل التوبة على مخاطر منها ضعف إرادة المرء واهتزاز عزيمته على التوبة، ويعود ذلك إلى أن الإنسان كلما استمر في القبول بالذنب وممارسته فإنه يتكيف معه ويتطبع به، من هنا تأتي أهمية اقتناص لحظات الهداية لاتخاذ قرار التوبة، حذراً من فوات هذه

---

(١) الكافي: ج٢ ص٤٣٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تحف العقول: ص١٨.

الفرصة.

ولعل أقرب مثال يذكر في هذا السياق ما نجده من تقلبات في اتخاذ القرار لدى الأطراف المتنازعة في قضايا إصلاح ذات البين، إذ تجد بعض الأشخاص يوافقون على تسوية الخلاف مع أقربائهم بعد طول حديث معهم، وتجدهم يعدون بإصلاح الأمر في الغد، إلا أنهم سرعان ما يتراجعون عما عزموا عليه في اليوم التالي وكأن شيئاً لم يكن.

هنا يأتي دور الشيطان الذي يعمل بجد في هذه اللحظات، ولذلك على الإنسان أن لا يؤجل التوبة والإقلاع عن الذنب فور تنبهه إلى الخطأ والذنب.

من هنا نفهم قول الله تعالى حين يتحدث في محكم كتابه الكريم عن المسارعة إلى التوبة: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾[1].

ومضمون التعبير القرآني: ﴿**يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ**﴾، أي: لا

(١) سورة النساء: آية٧١.

يتأخرون في التوبة، وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (لا دين لمسوف بتوبته)[١]، وفي ذلك إشارة خطيرة من الإمام عليه السلام بأن من يسوّف التوبة سيكون عرضة لفقدان الحالة الدينية في نفسه.

ثالثاً: عدم ضمان المرء لحياته، فإلى متى سوف يؤجّل المرء التوبة ومتى سيقلع عن الذنب، أتراه يضمن حياته، أفلا يخشى هجوم الأجل عليه وهو بعد لم ينجز التوبة؟ ورد عن الإمام علي عليه السلام: (مسوّف نفسه بالتوبة، من هجوم الأجل على أعظم خطر)[٢].

من هنا كان على الإنسان أن يبادر للإقلاع عن أي ذنب ومعصية، سواء في ذلك على مستوى العلاقة مع الله أو الناس، وكثيرا ما تجد أناساً لا يؤدون الحقوق الشرعية، ومع أنهم يدركون أن ذلك حق عليهم، لكنهم يسوفون في الأمر، والسؤال هنا؛ إلى متى التسويف؟ وهل تضمن استمرار حياتك وقوة إرادتك؟ فلطالما رأينا أشخاصاً

(١) موسوعة أحاديث أهل البيت (عليهم السلام): ج٢ ص٨٦٢.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٢١ ص٣١٠.

تحدثوا عن قناعة بالحقوق الشرعية فيبادرون بعد حين بأدائها، غير أن آخرين غيرهم لم يؤدوا حقهم الشرعي تحت ضغط التأجيل والتسويف، ولم يمهلهم الأجل طويلاً.

وعلى غرار ذلك أشخاص آخرون انخرطوا في مشاكل مع أزواجهم وجيرانهم والواحد منهم يعلم بخطئه، لكن مع ذلك يسوّف في إصلاح أمره، فهل يضمن مثلُ هذا حياته؟

إن على الإنسان أن يبادر إلى التوبة بمجرد أن يتنبه إلى الخطأ والمعصية، وهذا ما يوجه إليه الإمام الجواد عليه السلام بقوله: (تأخير التوبة اغترار- أي حالة من الغرور يعيشها الإنسان الذي يعتقد بطول الأمل والعمر- وطول التسويف حيرة - أي يجعل الإنسان حائراً بين الصح والخطأ من حيث السلوك - والاعتلال على الله هلكة - أي يتحجج بالعثور على فرصة مناسبة، في وقت آخر، هذه كلها أعذار: ﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ - والإصرار على الذنب أمن لمكر الله:

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من المبادرين إلى التوبة وأن يتقبلها منا بقبول حسن ويوفقنا لكل خير وصلاح.

من نُقبل توبته

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[2]. دلّت الآية على أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده بشرطين:

أحدهما: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾. الجهل يقابل العلم، غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلاً من أعمالهم الجارية عن علم وإرادة، وأن الإرادة إنما تكون عن حبٍّ ما وشوقٍ ما، سواء كان الفعل مما ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع أو مما لا ينبغي أن يفعل، لكن من له عقل مميّز في المجتمع عندهم لا يقدم على السيّئة المذمومة عند العقلاء، فأذعنوا بأن

(١) تحف العقول: ص٦٥٤.

(٢) سورة النساء: آية٧١.

من اقترف هذه السيّئات المذمومة لهوى نفساني وداعية شهوية أو غضبية خفي عليه وجه العلم وغاب عنه عقله المميّز الحاكم في الحَسَن والقبيح والممدوح والمذموم وظهر عليه الهوى، وعندئذ يسمّى حاله في علمه وإرادته جهالة في عرفهم وإن كان بالنظر الدقيق هو يتصرف عن علم بالأمور، لكن لمّا لم يؤثّر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل، وذمّه في ردعه عن الوقوع في القبح والشناعة أُلحق بالعدم، فكان هو جاهلاً عندهم حتى أنهم يسمّون الإنسان الشاب الحدث السنّ قليل التجربة جاهلاً؛ لغلبة الهوى وظهور العواطف والإحساسات على نفسه، ولذلك أيضاً تراهم لا يسمّون حال مقترف السيّئات إذا لم ينفعل في اقتراف السيّئة عن الهوى والعاطفة جهالة بل يسمّونها عناداً وعمداً وغير ذلك.

فالحاصل إن معنى الجهالة في العرف يختلف عن معنى الجهل، فالأول مقابل العقل بمعنى السداد في العمل، والثاني مقابل العلم.

فتبيّن بذلك أن الجهالة في باب الأعمال إتيان العمل عن

الهوى وظهور الشهوة والغضب من غير عناد مع الحق.

ومن خواصّ هذا الفعل الصادر عن جهالة أنه إذا سكنتْ ثورة القوى وخمد لهيب الشهوة أو الغضب باقتراف السيّئة أو بحلول مانع أو بمرور زمان أو ضعف البدن بهرم أو مرض، عاد الإنسان إلى عقله وزالت عنه أسباب الجهالة وبانت الندامة، بخلاف الفعل الصادر عن عناد وتعمّد ونحو ذلك فإن سبب صدوره لما لم يكن طغيان شيء من القوى والعواطف والميول النفسانية، بل أمراً يسمّى عندهم بخبث الذات ورداءة الفطرة، لا يزول بزوال طغيان القوى والميول سريعاً أو بطيئاً، بل دام نوعاً بدوام الحياة من غير أن يلحقه ندامة من قريب إلا أن يشاء الله، نعم ربما يتّفق أن يرجع المعاند اللجوج عن عناده ولجاجه واستعلائه على الحقّ، فيتواضع للحقّ ويدخل في ذلّ العبودية فيكشف ذلك عندهم عن أن عناده كان عن جهالة، وإن كان حال عناده يسمى معانداً، وفي الحقيقة كلّ معصية جهالة من الإنسان، وعلى هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلا من لا يرجع عن سوء عمله إلى

آخر عهده بالحياة.

ثانيهما: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، وقد أجمعوا على أن المراد من هذا القرب حضور زمان الموت ومعاينة أهواله، والدليل على ذلك قوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[1].

ولازم ذلك أن الذي يعمل السوء بجهالة لا يقيم عاكفاً على طريقته ملازماً لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله إلى التقوى والعمل الصالح كما يدوم عليه المعاند اللجوج، بل يرجع عن عمله من قريب، فكلّ معاند لجوج في عمله إذا شاهد ما يسوؤه من جراء عمله ووبال فعله ألزمته نفسه على الندامة والتبرّي من فعله، لكنه بحسب الحقيقة ليس بنادم عن طبعه وهداية فطرته، بل إنما هي حيلة تحتالها نفسه الشرّيرة للتخلّص من وبال الفعل، والدليل عليه أنه إذا اتّفق تخلّصه من الوبال المخصوص عاد ثانياً إلى ما كان عليه من سيّئات

(١) سورة النساء: آية ١٨.

الأعمال؛ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾[1].

ويتبيّن مما مرّ أن الشرطين جميعاً أعني قوله: ﴿**بجهالة**﴾ وقوله: ﴿**مِنْ قَرِيبٍ**﴾ احترازيان، بمعنى أنه يراد بالأول منهما أن لا يعمل السوء عن عناد واستعلاء على الله، وقد تبين وجهه مما مر قريبا.

وبالثاني منهما أن لا يؤخر الإنسان التوبة إلى حضور موته كسلاً وتوانياً ومماطلة، وأما وجهه فهو أن التوبة هي رجوع العبد إلى الله سبحانه بالعبودية، بمعنى أن يرجع العبد إلى ساحة العبودية عن طريق طلب التوبة من الله عليه، فتكون توبته تعالى أيضاً قبول هذا الرجوع، ولا تكون العبودية التي يطلب العبد الرجوع إليها بالتوبة إلا مع الحياة الدنيوية التي هي ظرف الاختيار المصحح للاختبار وموطن الطاعة والمعصية، ومع ظهور آية الموت لا اختيار تتمشى معه طاعة أو معصية، قال تعالى: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ**

(١) سورة الأنعام: آية٨٢.

آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إيمانِها خَيْراً﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾[2].

وبالجملة يعود المعنى إلى أن الله سبحانه إنما يقبل توبة المذنب العاصي إذا لم يقترف المعصية استكباراً على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع والتذلّل لله ولم يتساهل ويتسامح في أمر التوبة تساهلاً يؤدي إلى فوت الفرصة بحضور الموت.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثم قال: إن السنة لكثيرة، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثم قال: إن يوماً لكثير، من تاب قبل

(١) سورة الأنعام: آية١٢٨.

(٢) سورة غافر: آية٨٥.

أن يعاين قبل الله توبته)[١].

والمراد من المعاينة التي تمنع من قبول التوبة هي مشاهدة آيات الآخرة، لأن الإنسان عند القرب من الموت إذا شاهد أحوالاً وأهوالاً صارت معرفته بالله ضرورية عند مشاهدته تلك الأهوال: ﴿**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾[٢]. ومتى صارت معرفته بالله ضرورية بارتفاع حجب الدنيا سقط التكليف عنه.

ففي رواية أن رسول الله ﷺ قال: (إن إبليس لما رأى آدم أجوف قال: وعزّتك لا أخرج من جوفه ما دام فيه الروح، فقال الله تبارك وتعالى: وعزّتي لا أحول بينه وبين التوبة ما دام الروح فيه)[٣].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[٤].

(١) الكافي: ج٢ ص٤٤٠.

(٢) سورة السجدة: آية٢١.

(٣) كنز العمال: ج٤ ص٤٢٢.

(٤) المصدر السابق: ج٤ ص٠١٢.

أركان التوبة وشروطها

التوبة هي الإقلاع عن الذنب، ويعتبر في تحقّقها ثلاثة قيود:

الأول: ترك الفعل في الحال.

الثاني: الندم على الماضي من الأفعال.

الثالث: العزم على الترك في الاستقبال.

جاء في نهج البلاغة أنه قال أمير المؤمنين عليه السلام لقائل قال بحضرته: (استغفر الله: ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين وهو اسم واقع على ستة معانٍ:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله)[1].

يشتمل هذا الحديث الشريف الذي نقله السيد الرضي (أعلى الله مقامه) عن إمام الموحّدين علي عليه السلام، على ركنين من أركان التوبة هما: الندامة، والعزم على ترك العودة.

فالندامة إقرار بالخطأ والذنب الذي اقترفه، وهذه بداية الانعطاف عن طريق المعصية والرجوع إلى طريق الطاعة.

وأما العزم على ترك العودة إليه، فهو توطين للنفس أن لا تعود إلى هذا الطريق بعد أن عرف أنه طريق خاطئ يؤدي به إلى الهلكة، وعرف طريق الحق الذي يوصله إلى الرضوان والطاعة.، فهذان الأمران هما حقيقة التوبة وقوامها.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤ ص٧٩.

ويشتمل هذا الحديث أيضا على شرطين مهمين للقبول هما: إرجاع حقوق المخلوق لأهلها، وأداء حقوق الخالق سبحانه، وهذان الأمران مطلوبان، لأن العمل السابق الذي عمله بجهالة يمكن أن تترتب عليه تبعات بالنسبة للمخلوقين أو الخالق، وهذه التبعات لا تزول بمجرد ترك الذنوب، بل لابد من تداركها بعملٍ ما، حسب نوع الذنب، لكي يضمن أن لا يحاسب على ذنبه يوم القيامة، وسيأتي بيان الجانب العملي للتوبة من الذنب.

وأما الأمران الأخيران وهما الخامس والسادس، فهما من شروط كمال التوبة، أي: أن التوبة الكاملة لا تتحقّق ولا تقبل من دونهما.

توضيح ذلك: إن لكلّ منزل من منازل السالكين مراتب ودرجات تختلف حسب اختلاف حالات قلوبهم، وإن التائب إذا أراد البلوغ إلى مرتبة من مراتب الكمال فلابدّ له من تدارك ما تركه من الأعمال المأمور بها وتدارك الحظوظ أيضاً، يعني لابدّ من تدارك الحظوظ النفسانية التي فاتته أيّام الآثام والمعاصي، وذلك بالسعي

لمحو كلّ الآثار الجسمية والروحية التي حصلت في مملكة جسمه ونفسه من جرّاء الذنوب، حتى تعود النفس مصقولة كما كانت في بدء الأمر، وتعود الفطرة إلى روحانيتها الأصيلة، وتحصل له الطهارة الكاملة، وذلك لأن لكلّ معصية انعكاساً وأثراً في الروح، كما قد يحصل أثر من بعض الذنوب واللذائذ في الجسم، فلابد للتائب أن ينتفض ويستأصل تلك الآثار ويقوم بالرياضة البدنية والروحية من العبادات والمناسك حتى تزول منهما كلّ تبعات ومضاعفات الخطايا والآثام، ويتدارك بذلك الحظوظ الطبيعية، لأن صورة اللذات الطبيعية (المادّية) لا تزال ماثلة في ذائقة النفس، وما دامت عالقة بها ترغب إليها النفس ويعشقها القلب، ويُخشى من لحظة طغيان النفس وتمرّدها على صاحبها والعياذ بالله، وعليه أيضاً أن يذيب اللحوم التي نشأت على جسمه من الحرام أو المعصية...

فلابدّ على السالك لسبيل الآخرة والتائب عن المعاصي أن يذيق الروح ألم الرياضة الروحية ومشقّة العبادة،

فـإذا سـهر ليلـة في المعصيـة تداركهـا بليلـة في العبـادة، وإذا عـاش يومـاً واحـداً مـع اللذائـذ الطبيعيـة تداركـه بالصـوم والمسـتحبات المناسـبة حتـى تطهـر النفـس مـن كلّ آثـار المعـاصي وتبعاتهـا التـي هـي عبـارة عـن تعلّـق حـبّ الدنيـا بالنفـس ورسـوخه فيهـا وتتطهّـر مـن كلّ ذلـك.

فهـذان المقامـان مـن المتمّـمات والمكمّـلات لمنـزل التوبـة، والإنسـان عندمـا يريـد في بـدء الأمـر أن يدخـل مقـام التوبـة ويتـوب إلى الله تعـالى ينبغـي لـه أن لا يظـنّ بـأن المطلـوب منـه المرتبـة الأخـيرة مـن التوبـة لأنـه سـيجد الطريـق صعبـاً وعمليـة التوبـة شـاقّة فينـصرف عنهـا ويتركهـا.

إن كلّ مقـدار يسـاعد عليـه حـال السـالك في سـلوكه لطريـق الآخـرة يكـون مطلوبـاً ومرغوبـاً فيـه، وعندمـا تطـأ قدمـاه الطريـق ييسّـر الله تعـالى لـه السـير عليـه، فلابـدّ أن لا تمنـع صعوبـة الطريـق الإنسـان عـن الهـدف الأصيـل، لأنـه مهـم جـدّاً وعظيـم جـدّاً، وإذا انتبهنـا إلى عظمـة الهـدف وأهمّيتـه تذلّلـت جميـع الصعـاب مـن أجلـه، وأيّ شيء أعظـم مـن النجـاة الأبديـة والـروح والريحـان الدائمـين؟ وأيّ بـلاء

أعظم من الهلاك الدائمي والشقاء السرمدي؟ ومع ترك التوبة، والتسويف والتأجيل قد يبلغ الإنسان إلى الشقاء الأبدي والعذاب الخالد والهلاك الدائم.

الطريق العملي للتوبة

إعلم أن التوبة من الذنب وكيفية الخروج عنها تختلف بحسب نوع الذنوب التي كان يقارفها الإنسان، لأن المعاصي إما من حقوق الله وهي التي بينه وبين الله، أو حقوق الناس وهي التي بينه وبين المخلوق، والأولى -أي: حقوق الله- إما: واجبات أو محرمات، فهذه أقسام ثلاثة للتوبة:

الأول: فإذا كان قد ترك الطاعات الواجبة بينه وبين الله تعالى من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس والكفارة وغيرها، فطريق التوبة عنها: أن يندم على ما فرّط في طاعة الله، ويعزم على تعويض ما فات، وذلك بأن يعلم مقدار ما تركه من الطاعات إن كان متيسراً، أو يجتهد في تحصيل هذا المقدار إن كان متعسراً، ثم يبادر في قضائه ولا

يتهاون في ذلك، حتى يحصل له اليقين بفراغ الذمة عن الواجب المكلف به.

الثاني: وإذا كان قد فعل المحرمات التي بينه وبين الله، أعني المنهيات: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل - والعياذ بالله-، فطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبداً.

الثالث: وأما إذا كان قد قارف الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض فالأمر فيها أصعب وأشكل: فما كان في (المال): يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لِعُدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحله أو عجز عن الوصول إليه لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليتصدق عنه إن أمكنه، وإلا فعليه بالتضرع والابتهال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته هو وتكثير الاستغفار لصاحبه، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه، إذ كل

مَـن لـه حـق عـلى غـيره لا بـد أن يأخـذ يـوم القيامـة عوضـاً عـن حقـه، إمـا بعـض طاعاتـه أو بتحمـل هـذا الغـير بعـض سـيئاته.

ومـا كان في (النفـس): فـإن كانـت جنايـة جـرت عليـه خطـأ وجـب أن يعطـي الديـة، وإن كان عمـداً وجـب عليـه أن يمكّـن المجنـي عليـه أو أوليـاءه - مـع هلاكـه - مـن القصاص حتـى يقتـص منـه، أو يجعلـه في حـل، وإن عجـز عـن ذلـك فعليـه بكثـرة إعتـاق الرقـاب، لأن ذلـك نـوع إحيـاء وإيجـاد لا يقـدر الإنسـان عـلى أكثـر منـه، وعليـه الرجـوع أيضـاً إلى الله بالتـضرع والابتهـال أن يرضيـه عنـه يـوم القيامـة.

ومـا كان في (العـرض): بـأن شـتم أحـدا، أو قذفـه، أو بهتـه، أو اغتابـه، فحقـه أن يكـذّب نفسـه عنـد مـن قـال ذلـك لديـه، ويسـتحل مـن صاحبـه مـع الإمـكان، إن لم يخـف تهديـده وزيـادة غيظـه وهيجـان فتنتـه مـن إظهـاره، فـإن خـاف ذلـك، فليكثـر الاسـتغفار لـه، ويبتهـل إلى الله أن يرضيـه عنـه يـوم القيامـة.

ومجمـل مـا يلـزم في التوبـة عـن حقـوق النـاس: إرضـاء

الخصوم مع الإمكان، وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار، والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال، وليرضيهم عنه يوم القيامة، ويكون ذلك بمشيئة الله، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده، ووجد ذله وانكساره، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزانة فضله، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله.

معاودة الذنب بعد التوبة

من الناس من يهتدي بعد ضلال، ويستقيم بعد انحراف، فيتدارك آثامه بالتوبة والإنابة، ملبياً داعي الإيمان، ونداء الضمير الحُر.

بيد أنّ الإنسان كثيراً ما تخدعه مباهج الحياة، وتسترقه بأهوائها ومغرياتها، فيقارف المعاصي من جديد، منجرفاً بتيارها العَرِم، وهكذا يعيش صراعاً عنيفاً بين العقل والشهوات، ينتصر عليها تارة، وتنتصر عليه أخرى، وهكذا...

وهذا ما يعيق الكثيرين عن تجديد التوبة، ومواصلة

الإنابة خشية النكول عنها، فيظلّون سادرين في المعاصي والآثام.

فعلى هؤلاء أن يعلموا أن الإنسان عرضة لإغواء الشيطان، وتسويلاته الآثمة، ولا ينجو منها إلا المعصومون من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وأنّ الأجدر بهم إذا ما استزلهم بخدعه ومغرياته، أن يجددوا عهد التوبة والإنابة بنيّة صادقة، وتصميم جازم، فإن زاغوا وانحرفوا فلا يُقنطهم ذلك عن تجديدها كذلك، متذكرين قول الله عز وجل: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[1].

وهكذا شجّعت أحاديث أهل البيت عليهم السلام على تجديد التوبة، ومواصلة الإنابة، إنقاذاً لصرعى الآثام من الانغماس فيها، والانجراف بها، وتشويقاً لهم على استئناف حياة نزيهة مستقيمة.

فعن محمد بن مسلم قال: قال الإمام الباقر عليه السلام: (يا

(١) سورة الزمر: آية٣٥.

محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما واللهّ إنها ليست إلا لأهل الإيمان.

قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب، وعاد في التوبة، قال: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر اللهّ تعالى منه ويتوب ثم لا يقبل اللهّ توبته؟!

قلت: فإنه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر.

فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة، عاد اللهّ عليه بالمغفرة، وإنّ اللهّ غفور رحيم، يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، فإيّاك أن تُقنّط المؤمنين من رحمة اللهّ تعالى)[1].

(١) وسائل الشيعة: ج٦١ ص٩٧.

وجاء في معنى الآية الثامنة من سورة التحريم عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: (﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً**﴾؟ قال: هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً، قلت: وأيّنا لم يعد؟ فقال: يا أبا محمد، إن الله يحب من عباده المفتن التوّاب)[1].

والمراد بالمفتن التوّاب: هو الذي امتحنه الله بكثرة الوقوع في الذنب، ثم يتوب منها، فهو كثير العود إلى الذنوب، وكثير التوبة.

(١) وسائل الشيعة: ج٦١ ص٢٧.

الفصل الثالث

محاسبة النفس

معنى المراقبة والمحاسبة

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

الطريق العملي للمحاسبة

آثار الخوف من الله تعالى في الدنيا والآخرة

اغتنام فرصة العمر

معنى المراقبة والمحاسبة

المراقبة: هي ضبط النفس وصيانتها عن الإخلال بالواجبات ومقارفة المحرمات بأن يلاحظ ظاهره وباطنه دائما، حتى لا يقدم على شيء من المعاصي، ولا يترك شيئا من الواجبات، ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة.

وأما المحاسبة فهي: نظر النفس كلَّ يوم لما عملته من الطاعات والمبرات، أو اقترفته من المعاصي والآثام، فإن وجد ذنباً استغفر الله وعزم على عدم العود إليه وإن وجد طاعة شكر الله عليها وعزم على الاستزادة منها، وشيئا فشيئا تقل ذنوبه التي يكتسبها وتزداد طاعاته التي يأتي بها، فتغلب كفة حسناته على كفة سيئاته، فيرجى له النجاة يوم القيامة بذلك، وعليه مع ذلك أن يكون دائم الخوف من الله والحذر من سطواته وأن لا تغره أعماله وأن يدعو الله بحسن الخاتمة والعاقبة، لأن الأعمال بخواتيمها.

وجدير بالعاقل المستنير بالإيمان واليقين، أن يروّض نفسه على المحاسبة والمراقبة فإنّ النفس أمّارة بالسوء: متى

أهملت زاغت عن الحق، وانجرفت في الآثام والشهوات، وأودت بصاحبها في مهاوي الشقاء والهلاك، ومتى أُخذت بالتوجيه والتهذيب، أشرقت بالفضائل، وازدهرت بالمكارم، وسمت بصاحبها نحو السعادة والهناء قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[1].

هذا على أن للمحاسبة، والمراقبة أهمية كبرى في تأهب المؤمن، واستعداده لمواجهة حساب الآخرة، وأهواله الرهيبة، ومن ثم اهتمامه بالتزوّد من أعمال البر والخير الباعثة على نجاته وسعادة مآبه.

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

إعلم أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب، والمطالبة بمثاقيل الذر من الأعمال والخطرات واللحظات قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ**

(١) سورة الشمس: آية ٧- ١٠.

﴿خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١).

وقال عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(٣).

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾(٤).

وقال الكريم جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾(٥).

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٤٧.

(٢) سورة المجادلة: آية ٦.

(٣) سورة الكهف: آية ٩٤.

(٤) سورة الزلزلة: آية ٦ - ٧ - ٨.

(٥) سورة آل عمران: آية ٣٠.

وقال الجليل: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله عز وجل، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان)[٣].

وعنه ﷺ أنه قال: (لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسال عن أربعة: عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ وعن حبنا أهل البيت؟)[٤].

والآيات والأخبار الواردة في المحاسبة على الأعمال، والسؤال عن القليل والكثير، والنقير والقطمير، أكثر من أن تحصى.

وبإزاء ذلك أخبار دالة على الأمر بالمحاسبة والمراقبة

(١) سورة البقرة: آية ٢٨١.

(٢) سورة الحجر: آية ٢٩- ٣٩.

(٣) مجمع الزوائد: ج١٠ ص٣٤٦.

(٤) بحار الأنوار: ج٦٣ ص٩٧.

في الدنيا والترغيب عليها، وعلى كونها سببا للنجاة والخلاص من حساب الآخرة، وخطره ومناقشته، فمن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب، وطالبها في الأنفاس والحركات، وراقبها في الخطرات واللحظات، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله: خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه.

ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي سيئاته قال الله سبحانه: ﴿**وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[1].

والمراد بهذا النظر: المحاسبة على الأعمال، قال رسول الله ﷺ: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض الأكبر)[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئا إلا أعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون

---

(١) سورة الحشر: آية ٨١.

(٢) وسائل الشيعة: ج٦١ ص٩٩.

لـه رجـاء إلا مـن عنـد الله عـز ذكـره، فـإذا علـم الله عـز وجـل ذلـك مـن قلبـه لم يسـأله شـيئا إلا أعطـاه، فحاسـبوا أنفسـكم قبـل أن تحاسـبوا عليهـا فـإن للقيامـة خمسـين موقفـا كل موقـف ألـف سـنة ثـم تـلا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]، وتفريـع المحاسـبة عـلى الأمـر باليـأس عـن النـاس والرجـاء مـن الله، يـدل عـلى أن الإنسـان إنـما يرجـو النـاس مـن دون الله في عامـة أمـره وهـو غافـل عـن ذلـك، وإن عامـة المحاسـبات إنـما ترجـع إلى ذلـك، وذكـر الوقوف في مواقـف يـوم القيامـة بعـد الأمـر بمحاسـبة النفـس، وعطفـه عليـه بالفـاء فيـه إشـارة إلى السـبب، كأنـه قيـل والسـبب في محاسـبة النفـس في الدنيـا هـو لأن للقيامـة خمسـين موقفـا كل موقـف ألـف سـنة، وهـذه الإشـارة في الحديـث تبـين صعوبـة الموقـف يـوم القيامـة وكثـرة السـؤال فيهـا، وهـذا بنفسـه يدعـو الإنسـان إلى أن يحاسـب نفسـه في الدنيـا ليأمـن يـوم القيامـة مـن حسـاب الله العسـير والطويـل، إذ أن الإنسـان لـو حاسـب نفسـه في الدنيـا فلسـوف يتـوب عـن ذنوبـه

(١) الكافي: ج٨ ص٣٤١.

ويستغفر الله منها، ثم يحاول أن يتجنب المعاصي ويستزيد من الطاعات، وإذا استمر على ذلك عمره كله، يأتي يوم القيامة من دون حاجة إلى حساب زائد على ذلك، شرط أن يكون حسابه في الدنيا حقيقياً وليس من خداع النفس كما جاء في الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنا استزاد الله، وإن عمل سيئا استغفر الله منه وتاب إليه)[1]، فكأنه يُقدِّم يوم الحساب الذي في الآخرة يقدمه إلى الدنيا فيجعل حياته كلها حساباً ليستغني بذلك عن حساب الآخرة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: (لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله عز وجل، وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحق للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف)[2]، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين

(١) وسائل الشيعة: ج٦١ ص٥٩.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ج٩، ص٠٦٤.

بالقلب الوقوف بين يدي الجبار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة، كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤول، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[١].

وعنه عليه السلام أنه قال لرجل: (إنّك قد جُعلتَ طبيب نفسك، وبُيّن لك الداء، وعُرّفت آية الصحة، ودُلِلت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك)[٢].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (إن رسول اللهّ صلى الله عليه وآله بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر.

قيل: يا رسول اللهّ، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس، ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه)[٣].

وفي بعض الأخبار: (ما أحق باللبيب أن يكون

(١) سورة الأنبياء: آية ٦٤.

(٢) الكافي: ج٢ ص٤٥٤.

(٣) معاني الأخبار للشيخ الصدوق: ٠٦١.

لـه أربـع سـاعات في النهـار: سـاعة يحاسـب فيهـا نفسـه وينظـر مـا اكتسـب لهـا وعليهـا في ليلتـه ويومـه، وسـاعة يرفـع فيهـا حاجتـه إلى ربـه، وسـاعة يفـضي لإخوانـه وثقاتـه الذيـن يصدونـه عـن عيوبـه، وسـاعة يخـلي فيهـا بـين نفسـه وبـين لذتهـا ممـا يحمـد ويحـل، وإن السـاعة لمرغوبـة عـلى هـذه السـاعات الأخـر، وان اسـتجمام القلـوب وتوديعهـا زيـادة في قوتهـا)[1].

وجـاء عـن بعـض الأوليـاء أنـه كان يحاسـب نفسـه بأسـلوب يسـتثير الدهشـة والإكبـار: ذلـك مـا نقـل عـن توبـة بـن الصمـة، وكان محاسـباً لنفسـه في أكثـر أوقـات ليلـه ونهـاره، فحسـب يومـاً مـا مـضى مـن عمـره، فـإذا هـو سـتون سـنة، فحسـب أيامهـا فكانـت واحـداً وعشريـن ألـف يـوم وتسـعمائة يـوم، فقـال: يـا ويلتـاه!!، ألقـى مالـكاً بواحـد وعشريـن ألـف ذنـب، ثـم صعـق صعقـة كانـت فيهـا نفسـه.

وفي هذا السياق قال الشاعر:

إذا المرءُ أعطى نفسَهُ كلَّ شهوةٍ ولمْ يَنْهَها تاقتْ إلى كلِّ باطلِ

(١) معدن الجواهر: ص٢٤.

الطريق العملي للمحاسبة

إن محاسبة النفس ليست بالأمر السهل، ولا بد أن تتم هذه العملية في ثلاث مراحل حتى يعتاد الإنسان عليها، وهذه المراحل هي:

١- **المعاهدة**: يبدأ الإنسان في الصباح فيخلو إلى نفسه، ويعظها ويطلب منها أن تغتنم عمرها، وبالتالي يأخذ منها العهد بأن لا ترتكب المعصية ولا تترك الطاعة، وكذلك يستطيع أن يتوجه إلى لسانه ويحذره الغيبة، والكذب، وبقية المعاصي التي تؤدي إلى إفساد حياته في الآخرة، ويأخذ منه العهد على ألا يقع في هذه المحرمات، والشيء نفسه يمكن أن يفعله مع بقية الجوارح.

٢- **المراقبة**: بعد الانتهاء من المعاهدة، تبدأ مرحلة مراقبة النفس، من أجل أن يردعها عن محاولة التخلي عن الالتزام بالعهد، وإن من كان دائماً في حال ذكر الله تعالى، ويرى أنه في محضره عز وجل، فإنه سيلتفت دائماً إلى نفسه وإلى عهده، ويداوم على مجاهدتها ولا يغفل عنها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (إن الحازم من شغل نفسه بحال

نفسه فأصلحها، وحبسها عن أهوائها ولذاتها فملكها، وإن للعاقل بنفسه عن الدنيا وما فيها وأهلها شغلاً)[١].

٣- المحاسبة: بعد انتهاء المراقبة، يجب أن يحدد الإنسان ساعة كل يوم من أجل أن يحاسب نفسه، ولعل الوقت الأفضل هو وقت المساء، فيجلس ليرى ما فعله في نهاره ساعةً بساعة، فإن فعل خيراً حمد الله تعالى على توفيقه لفعل الطاعة، وإن فعل المعصية وبخ نفسه وانتهرها، وأعلن توبته لله تعالى وخاطبها: أيتُها النفس المرحومة، لقد أعطاك الله، ما أعطاك حتى تصبحي من المقربين، فماذا تفعلين؟ لقد كفرتِ بنعمة الله، وتجعلين نفسك وقوداً لسجيل، فلا يزال يشدد عليها حتى تنزجر، يقول الإمام علي عليه السلام: (مَن وبّخ نفسه على العيوب ارتدعت عن كثير من الذنوب)[٢].

إن حساب النفس من الأهمية بمكان، فإن الإمام الكاظم عليه السلام جعله مقياساً لمن ينتمي إلى أهل البيت عليهم السلام، يقول عليه السلام: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٤٢٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص٥٣٤.

حسنا استزاد الله وإن عمل سيئا استغفر الله منه وتاب إليه)[١].

وبالتالي إن من يدرك شدة الحساب يوم القيامة، فلا بد أن يسعى لتخفيف حسابه وجعله يسيراً، وهو ما يتطلب أن يحاسب نفسه في الدنيا، مستفيداً من المعاهدة والمراقبة والمحاسبة، وهو ما يعني تزكية نفسه وتهذيبها لتبتعد عن المعصية وتقترب من الطاعة وتقدم على فعل الخيرات.

آثار الخوف من اللَّه تعالى في الدنيا والآخرة

الخوف من اللهَّ هو الطريق الأمثل لدرك الجنة ورضا اللهَّ، وهو السبيل لإصلاح النفس، فالخائف من اللهَّ لا يكذب ولا يغتاب ولا يفعل ما يحرمه اللهَّ تعالى، وفي المقابل اللهَّ تعالى ينزل عليه بخوفه من أنواع الرحمات ويدخله فسيح جنته، وفوق ذلك الخائف من اللهَّ مطمئن النفس لأنه مستعد للموت في أي آن ولحظة.

والدليل على ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (من خاف اللهَّ آمنه اللهَّ من كل شيء، ومن خاف

(١) الكافي: ج٢، ص٣٥٤.

الناس أخافه اللهَّ سبحانه من كل شيء)[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (من خاف اللهَّ أخاف اللهَّ منه كل شيء، ومن لم يخف اللهَّ أخافه اللهَّ من كل شيء)[٢].

وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: (من عرضت له فاحشة أو شهوة فاجتنبها من مخافة اللهَّ عز وجل، حرم اللهَّ عليه النار، وآمنه من الفزع الأكبر، وأنجز له ما وعده في كتابه، في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾)[٣].

وكذا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى:

(﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. قال: من علم أن اللهَّ يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوى)[٤].

فاللهَّ سبحانه وتعالى تكفل على أن يرحم ويدخل الخائف منه فسيح جنته، ففي الحديث القدسي: (وعزتي

(١) ميزان الحكمة: ج١ ص٩٢٨.

(٢) وسائل الشيعة: ج٥١ ص٩١٢.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق: ص٤١٥.

(٤) الكافي: ج٢ ص١٧.

لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أمنين: فإذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة، وإذا آمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة)[١].

فيضمن لنا اللهَّ الرحمة إن جعلنا ميزانه نصب أعيننا، ولذا ترى الصالحين قد خافوا اللهَّ تعالى فنظر إليهم نظرة رحيمة، فعن ليث بن أبي سليم قال: (سمعت رجلاً من الأنصار يقول: بينما رسول اللهَّ ﷺ مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر، إذ جاء رجل فنزع ثيابه، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء، يكوي به ظهره مرة، وبطنه مرة، وجبهته مرة، ويقول: يا نفس ذوقي، فما عند اللهَّ عز وجل أعظم مما صنعت بك، ورسول اللهَّ ﷺ ينظر إلى ما يصنع.

ثم إن الرجل لبس ثيابه ثم أقبل فأومأ إليه النبي ﷺ: بيده ودعاه فقال له: يا عبد اللهَّ!، لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟

---

(١) كنز العمال: ج٣ ص٩٠٧.

فقال الرجل: حملني على ذلك مخافة اللهَّ عز وجل، وقلت لنفسي: يا نفس ذوقي فما عند اللهَّ أعظم مما صنعت بك؟.

فقال النبي ﷺ: لقد خفت ربك حق مخافته، وإن ربك ليباهي بك أهل السماء. ثم قال لأصحابه: يا معشر من حضر!، ادنوا من صاحبكم حتى يدعوا لكم. فدنوا منه فدعا لهم، وقال: اللهم اجعل أمرنا على الهدى، واجعل التقوى زادنا، والجنة مآبنا)[1].

اغتنام فرصة العمر

لو وازن الإنسان بين جميع مُتع الحياة ومباهجها، وبين عمره وحياته لوجد أنّ العمر أغلى وأنفس منها جميعاً، وأنه لا يعدله شيء من نفائس الحياة وأشواقها الكثر، إذ من الممكن اكتسابها أو استرجاع ما نفر منها.

أما العمر فإنه الوقت المحدد الذي لا يستطيع الإنسان إطالة أمده، وتمديد أجله المقدر المحتوم: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ**

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ص٠٢٤.

﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١].

كما يستحيل استرداد ما تصرم من عمره الذي قضاه في معصية الله تعالى، ولو بذل المرء في سبيل ذلك جميع مقتنيات الحياة.

وحيث كان الإنسان غفولاً عن قيمة العمر وجلالة قدره، فهو يسرف عابثاً في تضييعه وإبادته، غير آبه لما تصرم منه، ولا مغتنم فرصته السانحة.

من أجل ذلك جاءت توجيهات آل البيت عليهم السلام موضحة نفاسة العمر، وضرورة استغلاله وصرفه فيما يوجب سعادة الإنسان ورخائه في حياته العاجلة والآجلة.

قال سيد المرسلين صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر: (يا أبا ذر، كُن على عمرك أشحّ منك على درهمك ودينارك)[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (إنما الدنيا ثلاثة أيام: يوم مضى بما فيه فليس بعائد، ويوم أنت فيه فحقّ عليك اغتنامه، ويوم لا تدري أنت من أهله،

---

(١) سورة الأعراف: آية ٤٣.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ص٧٢٥.

ولعلك راحل فيه، أما اليوم الماضي فحكيم مُؤدب، وأما اليوم الذي أنت فيه فصديق مودّع، وأمّا غدا فإنما في يديك منه الأمل)[1].

وعنه عليه السلام: (ما من يوم يمر على ابن آدم، إلا قال له ذلك اليوم: أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل فيّ خيراً، واعمل فيّ خيراً، أشهد لك به يوم القيامة، فإنك لن تراني بعده أبداً)[2].

وروي أنه جاء رجل إلى علي بن الحسين عليهما السلام يشكو إليه حاله، فقال: (مسكين ابن آدم، له في كل يوم ثلاث مصائب لا يعتبر بواحدة منهن، ولو اعتبر لهانت عليه المصائب وأمر الدنيا:

فأما المصيبة الأولى: فاليوم الذي ينقص من عمره، قال: وإن ناله نقصان في ماله اغتم به، والدرهم يخلف عنه والعمر لا يردّه شيء.

والثانية: أنه يستوفي رزقه، فإن كان حلالاً حُوسِبَ

(١) بحار الأنوار: ج٧٠ ص١١١.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق: ص٩٦١.

عليه، وإن كان حراماً عوقب عليه.

قال: والثالثة أعظم من ذلك. قيل: وما هي؟ قال: ما من يوم يمسي إلا وقد دنى من الآخرة مرحلة، لا يدري على جنة أم على نار.

وقال عليه السلام: أكبر ما يكون ابن آدم اليوم الذي يولد من أمّه، قالت الحكماء: ما سبقه إلى هذا أحد)[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (اصبروا على طاعة الله، وتصبّروا عن معصية الله، فإنما الدنيا ساعة، فما مضى فليس تجد له سروراً ولا حزناً، وما لم يأت فلس تعرفه، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها، فكأنك قد اغتبطت)[2].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: (لا يغرّنك الناس من نفسك، فإن الأمر يصل إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكذا وكذا، فإنّ معك من يحفظ عليك عملك، فأحسن فانّي لم أر شيئاً أحسن دركاً، ولا أسرع طلباً، من حَسَنة محدثة

(١) بحار الأنوار: ج٥٧ ص٠٦١.

(٢) الكافي: ج٢ ص٩٥٤.

لذنب قديم)[١].

وعن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول اللهّ صلى الله عليه وآله: (يا علي بادر بأربع قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك)[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (لا يزولُ قدم عبد يوم القيامة من بين يدي اللهّ عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته؟ وجسدك فيما أبليته؟ ومالك من أين اكتسبته وأين وضعته؟ وعن حبنا أهل البيت عليهم السلام ؟)[٣].

وقال بعض الحكماء: إنّ الإنسان مسافر، ومنازله ستة، وقد قطع منها ثلاثة وبقي ثلاثة: فالتي قطعها:

فأولها: من كتم العدم إلى صلب الأب وترائب الأم.

وثانيها: رحم الأم.

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٤٥٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج٦١ ص٣٨.

(٣) خاتمة المستدرك: ج٣ ص٦٤٢.

وثالثها: من الرحم إلى فضاء الدنيا.

وأما التي لم يقطعها:

فأولها: القبر.

وثانيها: فضاء المحشر.

وثالثها: الجنة أو النار.

ونحن الآن في قطع مرحلة المنزل الثالث، ومدة قطعها مدة عمرنا، فأيامنا فراسخ، وساعاتنا أميال، وأنفاسنا خطوات، فكم من شخص بقي له فراسخ، وآخر بقي له أميال، وثالث بقي له خطوات. وما أروع قول الشاعر:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لهُ * إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثواني**

الفصل الرابع

قصص التائبين

ستر الله للتائبين — توبة بشر الحافي

التوبة في اللحظات الأخيرة

صاحب الأكفان — العابد والشيطان

توبة بهلول — دعوة مستجابة

توبة قاتل — هو الستار التواب

توبة فُضَيل — توبة شعوانة

توبة العابد — الشاب العاصي

قصص التائبين

حيث إن نقل قصص أهل الإيمان والتقوى له أثر خاص في التنبيه والتوعية بحيث تدفع السامع نحو العمل، فهي محفزة للتوبة ومشجعة عليها لذا من المناسب أن ننقل في هذا المقام عدة قصص عن أهل التوبة، آملين أن يستفيد القارئ العزيز منها.

توبة بشر الحافي

في عصر الإمام الكاظم عليه السلام كان يعيش في بغداد رجل معروف يقال له (بشر)، وحدث يوماً أن كان الإمام الكاظم عليه السلام، ماراً من أمام بيت (بشر)، وكانت أصوات اللهو والطرب تملأ المكان فصادف أن فتحت جارية باب الدار لإلقاء بعض الفضلات، وحين رمت بها في الطريق سألها الإمام عليه السلام؟ قائلاً: يا جارية! هل صاحب هذه الدار حر أم عبد؟ فأجابته الجارية وهي مستغربة سؤاله: بل هو حر. فقال الإمام عليه السلام: صدقت لو كان عبداً لخاف من مولاه. الإمام قال هذه الكلمة وانصرف،

فعادت الجارية إلى الدار وكان (بشر) جالساً إلى مائدة الخمر، فسألها: ما الذي أبطأك؟ فنقلت له ما دار بينها وبين الإمام، وعندما سمع ما نقلته من قول الإمام: (صدقت، لو كان عبداً لخاف من مولاه) اهتز هزةً عنيفةٌ أيقظته من غفلته، وأيقظته من نومته، نومة الغفلة عن الله، ثم سأل (بشر) الجارية عن الوجهة التي توجه إليها الإمام عليه السلام، فأخبرته فانطلق يعدو خلفه، حتى أنَّه نسي أن ينتعل حذاءه، وكان في الطريق يحدث نفسه بأن هذا الرجل هو الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، وفعلاً لحق بالإمام واعتذر وبكى ثم هوى على يدي الإمام يقبلها وكان لسان حاله يقول: سيدي أريد من هذه الساعة أن أصبح عبداً ولكن عبداً لله، لا أريد هذه الحرية المذلة التي تأسر الإنسانية فيّ، وتطلق العنان للشهوة الحيوانية، لا أريد حرية السعي وراء الجاه والمنصب، لا أريد حرية الخوض في مستنقع الذنوب وأغدو أسيراً لها، لا أريد أن تؤسر فيّ الفطرة السليمة والعقل السليم، من هذه الساعة أريد أن أصبح عبداً لله ولله وحده، حراً تجاه غيره.

وتاب بشر على يد الإمام الكاظم عليه السلام، ومنذ تلك اللحظة هجر الذنوب ونأى عنها وأتلف كل وسائل الحرام، وأقبل على الطاعة والعبادة، حتى أصبح من زهاد أهل زمانه.

ونختم هذه القصة بفقرة من دعاء الإمام السجاد عليه السلام وهو يناجي ربه: (وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سولت لي نفسي، وأعانني على ذلك سترك المرخى به علي، فأنا الآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحيي من ربي)[1].

(١) الصحيفة السجادية (أبطحي): ص٦٧١.

ستر الله للتائبين

جاء في كتاب مصابيح القلوب للسبزواري أنه لما نزلت آية تحريم الخمر أمر رسول الله ﷺ أن ينادي المنادي أن لا يشرب أحد الخمر، وفي يوم من الأيام التقى رسول الله ﷺ في طريقه برجل مسلم يحمل بيده قنينة خمر، فلما رأى رسول الله ﷺ اضطرب خوفا وقال إلهي تبت إليك، لا تفضحني أمام نبيك، ولما أقترب منه رسول الله ﷺ سأله عما في يده فقال: إنه خلٌّ، فطلب منه رسول الله ﷺ أن يصب قليلا منه في يده فلما صبه فإذا هو قد أنقلب إلى خل حقيقة، فبكى الرجل وقال يا رسول الله: والله إنه ما كان خلاً بل خمرا ولكنني تبت وسألت الله أن لا يفضحني أمامك! فقال ﷺ نعم من تاب بدّل الله سيئاته إلى حسنات: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[1].

(١) سورة الفرقان: آية٧٠.

التوبة في اللحظات الأخيرة

عن معاوية بن وهب قال: (خرجنا إلى مكة ومعنا شيخ متأله متعبد لا يعرف هذا الأمر - أي: إنه ليس على مذهب الشيعة- يتم الصلاة في الطريق ومعه ابن أخ له مسلم، فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه: لو عرضت هذا الأمر على عمك لعل الله أن يخلصه، فقال كلهم: دعوا الشيخ حتى يموت على حاله فإنه حسن الهيئة، فلم يصبر ابن أخيه حتى قال له: يا عم إن الناس ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرا يسيرا وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من الطاعة ما كان لرسول الله ﷺ وكان بعد رسول الله الحق والطاعة له، قال: فتنفس الشيخ وشهق وقال: أنا على هذا وخرجت نفسه، فدخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فعرض علي بن السري هذا الكلام على أبي عبد الله عليه السلام فقال: هو رجل من أهل الجنة، قال له علي بن السري: إنه لم يعرف شيئا من هذا غير ساعته تلك!؟ قال: فتريدون منه ماذا؟، قد دخل والله الجنة)[1].

(١) الكافي: ج٢، ص٤٤٠.

صاحب الأكفان

جاء في أمالي الشيخ الصدوق عن أبي حمزة الثمالي، عن زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، قال: (كان في بني إسرائيل رجل ينبش القبور، فاعتل جار له فخاف الموت، فبعث إلى النباش، فقال له: كيف كان جواري لك؟ قال: أحسن جوار. قال: فإنّ لي إليك حاجة، قال: قضيت حاجتك، قال: فأخرج إليه كفنين، فقال: أحب أن تأخذ أحبهما إليك، وإذا دفنت فلا تنبشني، فامتنع النباش من ذلك، وأبى أن يأخذه، فقال له الرجل: أحب أن تأخذه، فلم يزل به حتى أخذ أحبهما إليه، ومات الرجل، فلما دفن قال النباش: هذا قد دفن، فما علمه بأني تركت كفنه أو أخذته، لآخذنه، فأتى قبره فنبشه، فسمع صائحا يقول ويصيح به: لا تفعل، ففزع النباش من ذلك، فتركه وترك ما كان عليه (أي: ترك نبش القبور)، وقال لولده: أي أب كنت لكم؟ قالوا: نعم الأب كنت لنا، قال: فإنّ لي إليكم حاجة، قالوا: قل ما شئت، فإنا سنصير إليه إن شاء الله، قال: فأحب

إذا أنا مت أن تأخذوني فتحرقوني بالنار، فإذا صرت رمادا فدقوني، ثم تعمدوا بي ريحا عاصفا، فذروا نصفي في البر، ونصفي في البحر، قالوا: نفعل، فلما مات فعل به وُلْدُه ما أوصاهم به، فلما ذرّوه قال الله جل جلاله للبر: إجمع ما فيك، وقال للبحر: إجمع ما فيك، فإذا الرجل قائم بين يدي الله جل جلاله، فقال الله عز وجل: ما حملك على ما أوصيت به ولدك أن يفعلوه بك؟ قال: حملني على ذلك - وعزتك - خوفُك، فقال الله جل جلاله: فإني سأرضي خصومك وقد آمنت خوفك، وغفرت لك)[1].

قال الشاعر:

أيُّهاذا الناسُ ما حلَّ بكم عجباً من سهوِكُمْ كلَّ العجبْ
وسقامٌ ثمَّ موتٌ نازلٌ ثمَّ قبرٌ ونزولٌ وجَلبْ
وحسابٌ وكتابٌ حافظٌ وموازينُ ونارٌ تلتهبْ
وصراطٌ مَنْ يَقَعْ عنْ حدِّهِ فإلى خزيٍ طويلٍ ونَصَبْ

(١) الأمالي: ص٦٠٤.

العابد والشيطان

جاء في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان عابد في بني إسرائيل لم يقارف من أمر الدنيا شيئا، فنخر إبليس نخرة - ينخر: مد الصوت في خياشيمه- فاجتمع إليه جنوده فقال: مَنْ لي بفلان؟ فقال بعضهم: أنا له، فقال: مِن أين تأتيه؟ فقال: مِن ناحية النساء، قال: لست له لم يجرب النساء، فقال له: آخر: فأنا له، فقال له: مِن أين تأتيه؟ قال: مِن ناحية الشراب واللذات، قال: لست له ليس هذا بهذا، قال آخر: فأنا له، قال: مِن أين تأتيه؟ قال: من ناحية البَرّ قال: انطلق فأنت صاحبه، فانطلق إلى موضع الرجل فأقام حذاه يصلي قال: وكان الرجل ينام والشيطان لا ينام، ويستريح والشيطان لا يستريح، فتحول إليه الرجل وقد تقاصرت إليه نفسه واستصغر عمله، فقال: يا عبد الله بأي شيء قويت على هذه الصلاة؟ فلم يجبه، ثم أعاد عليه، فلم يجبه ثم أعاد عليه، فقال: يا عبد الله إني أذنبت ذنبا وأنا تائب منه فإذا ذكرت الذنب قويت على الصلاة، قال: فأخبرني بذنبك

حتى أعمله وأتوب فإذا فعلته قويت على الصلاة؟ قال: ادخل المدينة فسل عن فلانة البغية فأعطها درهمين ونل منها، قال: ومن أين لي درهمين ما أدري ما الدرهمين فتناول الشيطان من تحت قدمه درهمين فناوله إياهما فقام فدخل المدينة بجلابيبه يسأل عن منزل فلانة البغية فأرشده الناس وظنوا أنه جاء يعظها فأرشدوه فجاء إليها فرمى إليها بالدرهمين وقال: قومي فقامت فدخلت منزلها وقالت: ادخل وقالت: إنك جئتني في هيئة ليس يؤتى مثلي في مثلها فأخبرني بخبرك فأخبرها فقالت له: يا عبد الله إن ترك الذنب أهون من طلب التوبة، وليس كل من طلب التوبة وجدها، وإنما ينبغي أن يكون هذا شيطانا مُثَّل لك، فانصرفْ فإنك لا ترى شيئا - أي: لن أقترب منك-، فانصرفَ وماتت من ليلتها، فأصبحتْ فإذا على بابها مكتوب: احضروا فلانة فإنها من أهل الجنة، فارتاب الناس فمكثوا ثلاثا لم يدفنوها ارتيابا في أمرها، فأوحى الله عز وجل إلى نبي من الأنبياء لا أعلمه إلا موسى بن عمران عليه السلام أن ائت فلانة فَصَلَّ عليها ومُر

الناس أن يصلوا عليها فإني قد غفرت لها وأوجبت لها الجنة بتشبيطها عبدي فلانا عن معصيتي)[1].

(١) الكافي: ج٨ ص٤٨٣.

توبة بهلول

جاء في أمالي الشيخ الصدوق: أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ باكيا، فسلم فرد عليه السلام، ثم قال: ما يبكيك يا معاذ ؟ فقال: يا رسول الله، إن بالباب شابا طري الجسد، نقي اللون، حسن الصورة، يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك، فقال النبي ﷺ : أدخل علي الشاب يا معاذ، فأدخله عليه، فسلم فرد عليه السلام، ثم قال: ما يبكيك يا شاب؟ قال: كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوبا إن أخذني الله عز وجل ببعضها أدخلني نار جهنم، ولا أراني إلا سيأخذني بها، ولا يغفر لي أبدا، فقال رسول الله ﷺ : هل أشركت بالله شيئا؟ قال: أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئا، قال: أقتلت النفس التي حرم الله؟ قال: لا، فقال: النبي ﷺ : يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الجبال الرواسي، قال الشاب: فإنها أعظم من الجبال الرواسي، فقال النبي ﷺ : يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق، قال: فإنها أعظم

من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق، فقال النبي ﷺ: يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل السماوات السبع ونجومها ومثل العرش والكرسي، قال: فإنها أعظم من ذلك، قال: فنظر النبي ﷺ إليه كهيئة الغضبان ثم قال: ويحك يا شاب، ذنوبك أعظم أم ربك؟ فخر الشاب لوجهه وهو يقول: سبحان ربي! ما شيء أعظم من ربي، ربي أعظم يا نبي الله من كل عظيم، فقال النبي ﷺ: فهل يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم ! قال الشاب: لا والله، يا رسول الله، ثم سكت الشاب، فقال له النبي ﷺ: ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك، قال: بلى، أخبرك: إني كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات وأنزع الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار، فلما حُمِلت إلى قبرها ودُفِنت وانصرف عنها أهلها وجَنَّ عليها الليل، أتيت قبرها فنبشتها، ثم استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها، وتركتها متجردة على شفير قبرها، ومضيت منصرفا، فأتاني الشيطان، فأقبل يزينها لي ويقول:

أما ترى بطنها وبياضها؟ أما ترى وركيها؟ فلم يزل يقول لي هذا حتى رجعت إليها ولم أملك نفسي حتى جامعتها وتركتها مكانها، فإذا أنا بصوت من ورائي يقول: يا شاب، ويل لك من ديّان يوم الدين، يوم يقفني وإياك كما تركتني عريانة في عساكر الموتى، ونزعتني من حفرتي، وسلبتني أكفاني، وتركتني أقوم جنبة إلى حسابي، فويل لشبابك من النار، فما أظن أني أشم ريح الجنة أبدا، فما ترى لي يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: تنح عني يا فاسق، إني أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك من النار! فما أقربك من النار! ثم لم يزل ﷺ يقول ويشير إليه، حتى أمعن من بين يديه، فذهب فأتى المدينة، فتزود منها، ثم أتى بعض جبالها فتعبد فيها، ولبس مسحا - كساء من شعر -، وغل يديه جميعا إلى عنقه، ونادى: يا رب، هذا عبدك بهلول، بين يديك مغلول، يا رب أنت الذي تعرفني، وزل مني ما تعلم، يا سيدي يا رب، إني أصبحت من النادمين، وأتيت نبيك تائبا، فطردني وزادني خوفا، فأسألك باسمك وجلالك وعظمة سلطانك أن لا

تخيب رجائي، سيدي ولا تبطل دعائي، ولا تقنطني من رحمتك، فلم يزل يقول ذلك أربعين يوما وليلة، تبكي له السباع والوحوش، فلما تمت له أربعون يوما وليلة رفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم ما فعلت في حاجتي؟ إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي، فأوح إلى نبيك، وإن لم تستجب لي دعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبتي، فعجل بنار تحرقني أو عقوبة في الدنيا تهلكني، وخلصني من فضيحة يوم القيامة، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً**﴾ يعني الزنا ﴿**أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ**﴾ يعني بارتكاب ذنب أعظم من الزنا ونبش القبور وأخذ الأكفان ﴿**ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ**﴾ يقول: خافوا الله فعجلوا التوبة ﴿**وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ**﴾ يقول عز وجل: أتاك عبدي يا محمد تائبا فطردته، فأين يذهب، وإلى من يقصد، ومن يسأل أن يغفر له ذنبا غيري؟ ثم قال عز وجل: ﴿**وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ يقول: لم يقيموا على الزنا ونبش القبور وأخذ الأكفان ﴿**أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ**

﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، فلما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، خرج وهو يتلوها ويتبسم، فقال لأصحابه: من يدلني على ذلك الشاب التائب؟ فقال معاذ: يا رسول الله، بلغنا أنه في موضع كذا وكذا، فمضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى انتهوا إلى ذلك الجبل، فصعدوا إليه يطلبون الشاب، فإذا هم بالشاب قائم بين صخرتين، مغلولة يداه إلى عنقه، وقد اسود وجهه، وتساقطت أشفار عينيه من البكاء وهو يقول: سيدي، قد أحسنت خلقي، وأحسنت صورتي، فليت شعري ماذا تريد بي، أفي النار تحرقني؟ أو في جوارك تسكنني؟ اللهم إنك قد أكثرت الإحسان إلي، وأنعمت علي، فليت شعري ماذا يكون آخر أمري، إلى الجنة تزفني، أم إلى النار تسوقني؟ اللهم إن خطيئتي أعظم من السماوات والأرض، ومن كرسيك الواسع وعرشك العظيم، فليت شعري تغفر لي خطيئتي، أم تفضحني بها يوم القيامة؟ فلم يزل يقول نحو هذا وهو يبكي ويحثو التراب على رأسه، وقد أحاطت به

السباع، وصفت فوقه الطير، وهم يبكون لبكائه، فدنا رسول الله ﷺ فأطلق يديه من عنقه، ونفض التراب عن رأسه، وقال: يا بهلول، أبشر فإنك عتيق الله من النار، ثم قال ﷺ لأصحابه: هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول، ثم تلا عليه ما أنزل الله عز وجل فيه وبشره بالجنة)[1].

(١) الأمالي: ص٧٩-٠٠١.

دعوة مستجابة

جاء في كتاب فضائل السادات نقلاً عن الشهيد الثاني أنه قال: وجدت في كتاب المدهش لأبي الفرج الأصفهاني، قال بعض الصالحين: (دخلت إلى مصر فوجدت بها حداداً يخرج الحديد من النار بيده ويقلبه على السندان ولا يجد لذلك ألما، فقلت في نفسي: هذا عبد صالح لا تعدو عليه النار، فقلت: يا سيدي بالذي منّ عليك بهذه الكرامة إلا ما دعوت لي، قال: فبكى وقال والله يا أخي ما أنا كما ظننت! فقلت: يا أخي إن هذا الذي فعلته إن رأيت أن تطرفني به فأفعل، فقال: نعم، كنت يوما من الأيام جالسا في هذا الدكان وكنت كثير التخليط إذ وقفتْ عليّ امرأة جميلة الصورة لم أر قط أحسن منها وجهاً، فقالت: يا أخي هل عندك شيء لله عز وجل؟ فلما نظرت إليها فُتِنْتُ بها وقلت لها: هل لك أن تمضي معي إلى البيت وأدفع لك ما يكفيك زمانا طويلا، فقالت: لست والله ممّن يفعل هذا، فقلت: فأذهبي عني، قال: فذهبت وغابت عني طويلا ثم رجعت وقالت:

قد أحوجتني الضرورة إلى ما أردت، قال: فقفلت الدكان ومضيت بها إلى البيت، قال: فقالت لي يا هذا إن لي أطفالا قد تركتهم على فاقة فإن رأيت أن تعطيني شيئا أذهب به إليهم وأرجع إليك فأفعل، فأخذتُ عليها العهود والمواثيق ثم دفعتُ إليها دراهم فمضت وغابت ساعة ثم رجعت، فدخلتُ إلى البيت وأغلقتُ الباب، فقالت: لم فعلت هذا؟ فقلت: خوفا من الناس، فقالت: ولم لا تخاف من رب الناس؟ فقلت إنه غفور رحيم، ثم تقدمت إليها فوجدتها تضطرب كما تضطرب السعفة في يوم ريح عاصف ودموعها تنحدر على خديها، فقلت: مم اضطرابك، فقالت: يا هذا خوفاً من الله عز وجل، ثم قالت: يا هذا إن تركتني لله تعالى ضمنت لك أن الله لا يعذبك بناره لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال: فقمتُ ودفعتُ إليها جميع ما كان عندي وقلت: يا هذه اذهبي لسبيلك، قد تركتك خوفا من الله عز وجل، قال: فلما فارقتني غلبتني عيناي فرأيت امرأة لم أر أحسن منها وجها وعلى رأسها تاج من الياقوت فقالت يا هذا

جزاك الله عنا خيرا فقلت لها: ومَن أنت؟ قالت أُم الصبية التي أتتك وتركتها خوفا من الله عز وجل، لا أحرقك أالله بالنار لا في الدنيا ولا في الآخرة، فقلت ومن هي يرحمك أالله فقالت: هي من نسل رسول الله ﷺ قال: فحمدت الله عز وجل إذ وفقني وعصمني، ثم ذكرت قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1]، ثم أفقت من ذلك الوقت لا تعدو عليّ النار في دار الدنيا وأرجو أن لا تعدو عليّ في الآخرة) قال الشاعر:

حتى متى يا نفْسُ تغترينَ بالأملِ الكذوبِ
يا نفسُ توبي قبلَ أنْ لا تستطيعي أنْ تتوبي
واستغفري لذنبِكِ الرحمنَ غفّارَ الذنوبِ

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

توبة قاتل

وجاء أيضا في كتاب فضائل السادات: (أن إسحاق بن إبراهيم الطاهري رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له: أَطلق سراح القاتل، يقول إسحاق: انتبهت من النوم مرعوبا، واستدعيت الشرطة وقلت لهم: من هو هذا القاتل وأين هو؟ قالوا: إنه رجل أقرّ على نفسه بالقتل وهو حاضر عندنا، فأحضروه، فقال له إسحاق: لئن صدَقْتَ أطلقتُك، فقال: كنت أنا وجماعة من أهل الفساد لم نترك حراما إلا وارتكبناه، وارتكبنا كل عمل قبيح، وكان لدينا امرأة عجوز تجذب لنا الفتيات، وفي يوم من الأيام دخلت علينا تلك العجوز ومعها فتاة في غاية الجمال، فلما رأتنا تلك الفتاة وعرفت الأمر صاحت وسقطت مغشياً عليها، ولما أفاقت صاحت الله الله، اتقوا الله واتركوني، لقد خدعتني هذه العجوز وقالت لي: إن في هذا المكان مشاهد جميلة وشوقتني إليها وجرتني إلى هذا المكان، اتقوا الله، فأنا علوية من نسل الزهراء عليها السلام، يقول القاتل: لم يعتن رفقائي بكلامها وهجموا على

الفتاة، فأخذتني الغيرة لحرمة رسول الله ﷺ فمانعتهم حتى أصبت بعدة جراحات منهم كما تراني الآن، إلى أن ضربت كبيرهم ضربة قوية فقتلته وأنقذت الفتاة سالمة وصرفتها، فدعت لي الفتاة وقالت: ستر الله عيوبك كما سترت عليّ، وأعانك الله كما أعنتني، وفي هذا الحال وبعد سماع الصراخ والصيحات دخل الجيران إلى الدار بينما كان الخنجر بيدي يقطر دماً، والمقتول أمامي ملطخاً بالدم، فأخذوني وأحضروني هنا، فقال له إسحاق: لقد عفوت عنك لله ورسوله ﷺ، فقال الرجل: وأنا أيضا أتوب من جميع ذنوبي، ولا أعود إلى معصية بحق مَن عفوت به عني).

ترى في هذه القصة كيف أن ذلك القاتل رغم جميع آثامه صار موردا للطف الله تعالى ورسوله ﷺ حتى تخلص من القتل ووفق للتوبة من جميع ذنوبه وذلك بسبب تركه للحرام ومنعه منه ومعونته للمظلوم.

قال الشاعر:

إيَّاكِ والبغيَ والبهـتانَ والغـيبَة والشَّكَ والكفرَ والطغيانَ والريبة

ما زادَكِ السِّنُ منْ مثقالِ خَردلةٍ إلاّ تقرَّبَ الموتُ منـكِ تـقريبَـة

فما بقاؤُكِ والأيـــامُ مســرعةٌ تصعيدةٌ منـكِ أحـياناً وتصويبَـة

هو الستار التواب

انقطع الغيث عن بني اسرائيل في زمن موسى عليه السلام، فجاءوا إلى موسى يتشاكون الفاقة والحاجة، وقالوا له: (ادعُ لنا ربّك لينقذنا من هذه التهلكة.. فخرج موسى فيهم إلى الصحراء وصلى بهم صلاة الاستسقاء، ودعوا ربّهم لينزل عليهم المطر... إلا أن المطر لم ينزل مع كثرتهم إذ كان عددهم سبعين ألفاً، مع إلحاحهم بالدعاء.

فرفع موسى رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أدعوك ومعي سبعون ألفاً فلا تستجيب لنا، فهل نقصت منزلتي عندك؟! فأوحى الله تعالى إليه: إن بينكم رجلاً عصى الله أربعين سنة، فقل له أن يخرج من بينكم حتّى أنزل عليكم المطر، فقال موسى: يا ربي إن صوتي ضعيف فكيف أُسمعه سبعين ألف رجل؟ فأوحى الله إليه: إنك إن قلت نحن نوصل صوتك إليهم.

فصاح موسى بصوت جهوري: من عصا الله أربعين سنة فليقم وليخرج من بيننا؛ لأن الله قطع عنا الغيث بسببه، نهض ذلك العاصي وتلفت يميناً وشمالاً فلم يجد

أحداً قد خرج، فأدرك أنّه هو المقصود فقال في نفسه: ماذا أصنع، إذا قمت ورآني الناس عرفوني وفضحت بينهم، وإذا أنا بقيت لا ينزل عليهم الغيث... فجلس مكانه وندم من أعماق قلبه على قبائحه ومعاصيه، وتاب إلى ربّه، ظهرت الغيوم على الفور وتراكمت ونزل عليهم الغيث، وسقوا بأجمعهم... فقال موسى: يا رب! لم يخرج من بيننا أحد، فكيف سقيتنا؟.

فنودي: سقيتكم بالذي منعتكم به، فقال موسى: يا رب! هل تريني هذا العاصي؟ فقال له ربّه: لم أفضحه عندما كان عاصياً، هل أفضحه الآن بعد ما تاب؟. يا موسى إني عدو النمامين، أفهل أنم، وأنا ستار العيوب، فهل أهتك ستر عبادي؟).

توبة فُضَيل

روي أن الفضيل بن عياض كان في بداية أمره من قُطّاع الطريق، الذين لا يتورعون عن ارتكاب أية كبيرة، وكان اسمه يثير الرعب في النفوس، حتى أن خليفة ذلك العصر هارون كان يخشاه، وفي أحد الأيام وقف على ضفة نهر ليسقي فرسه، إذ وقع بصره على فتاة في غاية الجمال، تحمل على كتفها قربة ومتجهة صوب الماء، تريد ملء القربة... فوقع حبّها في قلبه، وما أن رفع عنها بصره حتى ملأت قربتها وذهبت.

أمر أتباعه باقتفاء أثرها حتى إذا بلغت دارها طرقوا الباب، وأبلغوا أهلها بوجوب إعداد هذه الفتاة الجميلة، وإخلاء الدار تلك الليلة، لأن فضيل راغب بوصالها، - ولهذا السبب نادى الإسلام بوجوب الحجاب، حتى لا تقع عين الأجنبي على المرأة، وما يتمخض عن ذلك من الآم وكوارث- ما أن بلغ الخبر أبويها حتّى استولى عليهما الذعر... واضطر إلى استدعاء بعض وجوه البلد للبحث عن مخرج من هذا الموقف... فقيل لهم: لا بد

من التضحية بالفتاة في سبيل المدينة، لأن فضيل إذا لم ينل بغيته سيحرق كل شيء في تلك المدينة... فاضطر أبواها إلى إعدادها وإخلاء الدار، دخل فضيل المدينة ليلاً وتسلق الجدار، وعبر سطوح بعض الدور ليصل إلى دار الفتاة، وهناك تناهى إلى سمعه صوت قراءة قرآن، فأنصت إليه وإذا هو رجل يتلوا الآية الشريفة: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾[1]. فأثرت هذه الآية في نفسه وعاد ونزل من الجدار وتغيّر حاله، وقال بنية خالصة وقلب نقي: يا إلهي!. لقد آن وقت الخشوع.

تاب فضيل إلى ربّه توبة خالصة، وسار تلك الليلة على وجهه إلى أن وصل إلى خربة، فرأى فيها بعض التجار والمسافرين الذين لجأوا إلى هذه الخربة خوفاً من فضيل وعصابته، وحطّوا رحالهم هنا، وهم على وشك المسير ويقول بعضهم لبعض: كيف لنا أن نتخلص من شّر فضيل؛ فمن المؤكد أنه سيهجم علينا هذه الليلة ويسلبنا متاعنا.

(١) سورة الحديد: آية ٦١.

تأثر فضيل أكثر عند سماع هذا الكلام، لأنه كان سبباً في ترويع الناس وإيجاد الذعر في القلوب، فتقدم إليهم وعرفهم بنفسه وقال لهم: طيبوا نفساً بعد اليوم، فضيل تاب وسلك طريق الله.

انتهج فضيل طريق الزهد حتّى غدا واحداً من عرفاء وزهاد عصره... يروى أن هارون رأى عند ذهابه إلى مكة حلقة من الناس حول رجل يعظهم وهم يبكون، فسأل عنه، قيل له: هذا فضيل الفاسق قد تاب الآن... كان هارون من قبل يخشى غاراته وقطعه للطريق، وهو اليوم يخشى زهده وتقواه.

كان فضيل يسجل في دفتر لديه أسماء وعناوين الأشخاص في كل قافلة يسلبها، ولما تاب قصد أصحاب الأموال التي سرقها منهم، ووجد أغلبهم واسترضاهم، أما الذين لم يجدهم فقد دفع عنهم الصدقات رداً للمظالم، إلاّ رجلاً واحداً يهودياً من نواحي الشام، كان فضيل قد سلبه مالاً كثيراً فأبى هذا اليهودي أن يصفح عنه، وقال: إنني أقسمت أن لا آخذ بدل مالي المسلوب إلاّ ذهباً، ولكنّك ما دمت جاداً في طلبك ولا مال لديك،

فلا بأس أن تذهب وتأخذ من أموالي وذهبي الموجود تحت فراشي، وتقدمه لي بقصد أداء ما عليك من دين حتّى أكون قد بررت بقسمي، وتكون أنت أيضاً قد بلغت حاجتك.

مد فضيل يده تحت الفراش وأخرج مقداراً من الذهب وأعطاه لليهودي، فقال من فوره: أنطقني بالشهادتين، لقد آمنت بإله محمد، ولا معنى بعد هذا للبقاء على الديانة اليهودية، لأني قرأت في التوراة، إن إحدى صفات أتباع رسول آخر الزمان، هي أن أحدهم إذا أخلص لله التوبة من ذنوبه، يبدل الله التراب في يده ذهباً، إعلم أنه لم يكن تحت فراشي إلاّ التراب، وإنني إنما أردت امتحانك، ولما أبدل الله التراب بيدك ذهباً تكشفت لي حقيقتان:

الأولى: هي أنك تائب حقّاً ومن صميم قلبك.

والثانية: هي أن الدين الذي أنبأ عنه موسى في التوراة، والذي اعتبره ناسخاً لدينه وللدين الذي يأتي بعده (أي المسيحية) هو الدين الذي أنت عليه.

وبهذا أسلم ذلك اليهودي على يد فضيل.

توبة شعوانه

نقل الفاضل النراقي في معراج السعادة أنه كانت بالبصرة امرأة تسمّى (شعوانة) مشهورة بالتهتك والرقص والبغاء، وما كان مجلس فساد يقام إلاّ وفيه (شعوانة)... كانت ذات يوم تسير هي وجواريها في أحد الأزقّة وصادف أن مرّت عند باب أحد الزهاد في ذلك العصر، وتناهى إلى سمعها هناك صوت بكاء وعويل من داخل الدار.

أرسلت إحدى جواريها لتأتيها بخبر ما يجري، وأمرتها أن تعود إليها سريعاً، وقالت مع نفسها: إن في البصرة عزاء ونحن لا ندري، ودخلت الجارية الدار ولم تعد، فأرسلت وراءها بجارية أخرى، ولكن الثانية لم تعد هي الأخرى، وأرسلت من بعدهما سائر الجواري، ولم تعد إليها أية واحدة منهن، غضبت وقالت: ما الخبر؟ أرسلت جميع الجواري، ولم تعد واحدة منهن، لا بد وأن هنالك سراً في هذه الدار، وما هذا العزاء بعزاء أموات، بل عزاء الأحياء، هذا عزاء المذنبين، العاصين، المجرمين،

وأصحاب الصحائف السود، ثم قررت أن تدخل الدار بنفسها لتطلع على حقيقة الأمر.

دخلت الدار فوجدت رجلاً صالحاً على المنبر وناساً كثيرين حول المنبر يبكون، كان الواعظ يفسّر لهم الآية الكريمة: ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً* وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً**﴾[1].

فيناديهم مالك: ويحكم! سرعان ما تعالت أصواتكم، لازلتم في البداية، وهل رأيتم حرّها؟ إن وراءكم عذاباً وآلاماً أكثر، فكيف ستفعلون؟

ما أن سمعت شعوانة تفسير هذه الآية، حتّى استشعرتها في أعماق قلبها وأخذت تبكي ونادت: وهل إذا تاب العبد تُقبل توبته، مع كل هذه الذنوب، ويجعل له مكاناً عنده في الجنّة؟ قال لها الشيخ: الله أرحم الراحمين، توبي يتوب الله عنك، وإن كانت ذنوبك كذنوب شعوانة.

قالت: يا شيخ، أنا شعوانة، تبت إلى الله، ولن أعاود

---

(١) سورة الفرقان: آية ٢١- ٣١.

ارتكاب الذنوب، قال لها: ما دمت قد تبت، تاب الله عليك، وغفر لك ذنوبك.

كانت توبة شعوانة صادقة، فأنفقت كل ثروة حصلت عليها من هذا العمل، وأعتقت كل غلمانها وجواريها، واتخذت لنفسها صومعة في الصحراء وانهمكت بالعبادة إلى أن ذاب لحمها، جاءت ذات يوم إلى الحمام لتغتسل ونظرت إلى بدنها، فوجدت نفسها قد صارت ضعيفة وقد لصق جلدها بالعظم فتحسرت وقالت: آه يا شعوانة هكذا صار حالك في الدنيا...! ولا أعلم ماذا سيكون شأنك غداً في الآخرة؟.

فجأة سمعت صوتاً ينادي: يا شعوانة! لا تبعدي عنا والزمي بابنا لنرى ما سيكون عليه شأنك غداً في الآخرة... فكبر شأنها شيئاً فشيئاً حتّى غدت من الأولياء، وصاروا يعقدون مجلساً تتحدث هي فيه وتهطل دموعها.

أجل، كل من يتصالح مع ربّه ويهجر الذنوب يبلغ هذه المنزلة.

قال الشاعر:

ومَنْ يتتبَّعْ شهوةً بعدَ شهـــوةٍ مُلِحاً تَقَسَّمْ عقلَهُ الشهواتُ
ومَنْ يأمنِ الدنيا وليس بِحِلْوِها ولا مُرِّها فيما رأيـــتُ ثبـــاتُ
أجابتْ نفوسٌ داعيَ اللهِ فأقْضَتْ وأخرى لِداعيْ الموتِ منتظراتُ

توبة العابد

روي أنه كان في جبل لبنان رجل من العبّاد منزوياً عن الناس في غار في ذلك الجبل، وكان يصوم النهار، ويأتيه كل ليلة رغيف يفطر على نصفه ويتسحّر بالنصف الآخر...

وكان على ذلك الحال مدّة طويلة لا ينزل من ذلك الجبل أصلاً، فاتفق أن انقطع عنه الرغيف ليلة من الليالي، فاشتد جوعه وقل هجوعه، فصلى العشائين وبات في تلك الليلة في انتظار شيء يدفع به الجوع فلم يتيسّر له شيء، وكان في أسفل ذلك الجبل قرية سكّانها نصارى، فعندما أصبح العبد نزل إليهم واستطعم شيخاً منهم، فأعطاه رغيفين من خبز الشعير، فأخذهما وتوجّه إلى الجبل، وكان في دار ذلك الشيخ كلب أجرب مهزول، فلحق العابد ونبح عليه وتعلق بأذياله، فألقى عليه العابد

رغيفاً من ذينك الرغيفين ليشغل به عنه، فأكل الكلب ذلك الرغيف ولحق العابد مرّة أخرى، وأخذ ينبح عليه، فألقى إليه العابد الرغيف الآخر، فأكله ولحقه تارة ثالثة، واشتد هريره وتشبّث بملابس العابد فمزقها، فقال العابد: سبحان الله! إني لم أر كلباً أقل حياءً منك، إن صاحبك لم يعطني إلاّ رغيفين وقد أخذتهما منّي، ماذا تطلب بنباحك وتمزق ثيابي؟.

فأنطق الله تعالى الكلب فقال: لست أنا قليل الحياء، إعلم أني ربيت في دار ذلك النصراني، أحرس غنمه، وأحفظ داره، وأقنع بما يدفع إليَّ من خبز أو عظام، وربّما نسيني فأبقى أياماً لا آكل شيئاً، بل ربما تمضي أيام لا يجد هو لنفسه شيئاً ولا لي، ومع ذلك لم أفارق داره منذ عرفت نفسي ولا توجهت إلى باب غيره، بل كان دأبي أنه إن حصل شيء شكرت وإلاّ صبرت.

وأما أنت فبانقطاع الرغيف عنك ليلة واحدة، لم يكن عندك صبر ولا كان لك تحمّل حتى توجهت من باب رازق العباد إلى باب نصراني، وطويت كشحك عن

الحبيب، وصالحت عدوّه المريب، فقل: أيُّنا أقل حياءً أنا أم أنت؟ فلما سمع العابد ذلك ضرب بيديه على رأسه وخر مغشياً عليه).

يُنسب إلى الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

إلهي لا تعذّبني فإنّي مُقِرٌّ بالذي قد كان منّي
فما لي حيلةٌ إلاّ رجائيْ بعفوِكَ إنْ عفَوتَ وحُسنِ ظني
فكمْ من زلَّةٍ لي في الخطايا عضضتُ أناملي وقرعتُ سِنِّي
يظنُّ الناسُ بي خيراً وإنِّي لَشَرُّ الخلقِ إنْ لم تَعْفُ عنِّي

الشاب العاصي

نقل نجيب الدين، وكان من أكابر علماء عصره، يقول: كنت ذات ليلة في مقبرة، فرأيت أربعة أشخاص قادمين يحملون جنازة... فتقدمت إليهم وأنكرت عليهم جلب الجنازة في هذا الوقت من الليل، وقلت: يبدو لي من فعلكم أنكم قتلتم إنساناً وتريدون دفنه في منتصف الليل، لكي لا يطلع أحد على أسراركم.

قالوا: لا تسئ الظن يا رجل، لأن أم الفتى معنا، فتقدمت إليَّ عجوز كانت معهم، سألتها: لماذا جئت بابنك إلى المقبرة في منتصف الليل؟.

قالت: كان ابني فاعلاً للمعاصي، وقبل أن يموت أوصى بعدّة وصايا، منها: إذا مت ضعي في رقبتي حبلاً، واسحبيني إلى الدار وقولي: هذا عبدك العاصي الهارب وقع في قبضة الموت، وقد أحكمت وثاقه وجئتك به، فارحمه... وأوصى إذا مات أن ادفنه ليلاً، لكي لا يرى جنازته أحد ويتذكر معاصيه فيتعذّب، وثالثاً أن تدفنيني بنفسك وتضعيني في لحدي، لعل الله إذا رأى شيبك يرأف

بي ويغفر لي، صحيح إني تبت وندمت على أفعالي ولكن عليك تنفيذ هذه الوصايا.

ولما مات وضعت حبلاً في رقبته وسحبته، وبغتة سمعت هاتفاً يقول: ألا إن أولياء الله هم الفائزون، لا تفعلي هذا بعبدي العاصي، فإنا نعلم ما نصنع به، فرحت لقبول توبته وجئت به إلى المقبرة، وطلبت منها أن تسمح لي بدفنه، فوافقت، وما أن وضعته في قبره ولحدته حتى سمعت منادياً يقول: ألا إنّ أولياء الله هم الفائزون، ففهمت أن توبة العاصي تقبل، وأن الله لا يرضى بإهانة العاصي التائب.

قال الشاعر:

أَفْنيتَ عمرَكَ باغترارِكْ ومُناكَ فيهِ وانتصارِكْ
ونسيتَ ما لا بدَّ منْهُ وكانَ أولى بادكّارِكْ
وإنْ اعتبرتَ بما ترى فَكَفاكَ علماً باعتبارِكْ
لك ساعةٌ تأتيكَ منْ ساعاتِ ليلِكَ أو نهارِكْ
بادِرْ بحَدِّكَ قبلَ أنْ تُقْضَى وتُزْعَجَ منْ قرارِكْ

هذه القصص تؤكد أن التائب:

أولاً: يجب أن يُدرِك عَظَمة ذنبه، ويزداد خجلاً، ويعرف أن رحمة الله ومغفرته هي نعمة كبيرة ويكون جاداً في طلبها، ويعرف أنه لا يستغني عنها.

وثانياً: أن لا يطمئن إلى قبول توبته، ولا يكف عن التضرع وطلب المغفرة، وغالباً لا يحصل مثل هذا الاطمئنان إلا ساعة الموت.

والخلاصة: يجب أن يبقى في تحرق وتألم بين حالة الخوف والرجاء إلى حين يسمع نداء الملك ساعة الموت أن: ﴿**أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[1].

(١) سورة فصلت: آية٣٠

أسئلة كتاب ففروا إلى الله

س١: روي أنه جاء رجل إلى ..... يشكو إليه حاله، فقال: ((مسكين ابن آدم، له في كل يوم ثلاث مصائب لا يعتبر بواحدة منهن، ولو اعتبر لهانت عليه المصائب وأمر الدنيا.

أ- الإمام علي عليه السلام ب- علي بن الحسين عليهما السلام

ج- الإمام الرضا عليه السلام

س٢: روي عن النبي صلى الله عليه وآله: ((خير الأعمال .....))

أ- أحسنها ب- أكثرها ج- أدومها، وإن قل

س٣:عن الإمام زين العابدين 8 قال: ((إياك والابتهاج بالذنب فإن الابتهاج بهِ.....))

أ- ليسخط الرب ب- يُميت القلب

ج- أعظم من ركوبه

س٤: روي عن النبي ﷺ: ((من قارف ذنباً فارقهُ.....))

أ- الأيمان ب- عقل لا يرجع إليه أبداً

ج-عملهُ الصالح

س٥: يوجد شرطان للتوبة أحدهما:العمل بِجَهالَةٍ .....

أ- كونها من الصغائر ب- وَعدم تأخير التوبة

ج- كونها من الكبائر

س٦: التوبة هي الرجوع عن الذنب إلى الله، و..... هي الرجوع عن المباحات أيضا إليه سبحانه، فهي من المقامات العالية والمنازل السامية.

أ- الورع ب- التقوى ج- الإنابة

س٧: وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: ((المرض للمؤمن تطهير ورحمة وللكافر تعذيب ولعنة وإن المرض لا يزال بالمؤمن حتى لا يكون.....)).

أ- عليه ذنب ب- فيه ذنب ج- له ذنب

س٨: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((لا تصغر ما ينفع يوم القيامة، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم الله كمن.....))

أ- عاين ب- رأى ج- شاهد

س٩: قال الإمام الكاظم عليه السلام: ((ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل .....، فإن عمل حسنا استزاد الله، وإن عمل سيئا استغفر الله منه وتاب إليه))

أ- يوم جمعة ب- يوم خميس ج- يوم

س١٠: قال الله سبحانه: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

والمراد بهذا النظر.....

أ- المحاسبة على الأعمال ب- التفكر

ج- محاسبة النفس

س١١: عن الإمام الصادق عليه السلام: ((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإن للقيامة .....موقفا كل موقف ألف سنة)).

أ- سبعين ب- خمسين ج- تسعون

س١٢: قال سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: ((يا .....، كُن على عمرك أشحّ منك على درهمك ودينارك))

أ- سلمان ب- عمار ج- أبا ذر

س١٣: وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((إنما الدنيا ثلاثة أيام: يوم مضى بما فيه فليس بعائد، ويوم أنت فيه فحقّ عليك اغتنامه، ويوم لا تدري أنت من أهله، ولعلك راحل فيه، أما اليوم الماضي فحكيم مُؤدب، وأما اليوم الذي أنت فيه فـ.....، وأمّا غدا فإنما في يديك منه الأمل)).

أ- أخ مودّع ب- صديق مودّع ج- عزيز موّدع

س١٤: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((أما أنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا ..... وذلك قول اللهَّ عز وجل في كتابه: «وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ» ثم قال: وما يعفو اللهَّ أكثر مما يؤاخذ به)).

أ- بخطيئة ب- بذنب ج- بمعصية

س١٥: في رواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((إن إبليس لما رأى آدم أجوف قال: وعزّتك لا أخرج من جوفه ما دام.....)).

أ- فيَ روح ب- فيه الروح ج- مادامت الحياة

الفهرس

مقدمة أسبوع التوبة للسنة الثانية:..... ٣

مقدمة أسبوع التوبة للسنة الأولى:..... ٦

الانتباه إلى الآفات..... ٩

الفصل الأول ١٣

تمهيد..... ١٥

الذنوب في لسان الآيات والروايات..... ١٦

الكبائر والصغائر..... ٢٢

تكفير الصغائر..... ٢٩

الصغائر قد تكون كبائر..... ٢٩

آثار الذنوب ٣٨

وسائل علاج الذنوب..... ٤٧

خلاصة الكلام..... ٦٤

الفصل الثاني..... ٦٩

معنى التوبة لغة..... ٧١

حقيقة التوبة..... ٧٢

الإنابة من مراتب التوبة..... ٧٣

الشوق إلى التوبة..... ٧٥
فضيلة التوبة وثمارها..... ٧٦
وجوب التوبة وفوريتها..... ٨١
مخاطر تأخير التوبة..... ٨٣
من تُقبل توبته ٨٨
أركان التوبة وشروطها..... ٩٥
الطريق العملي للتوبة..... ١٠٠
معاودة الذنب بعد التوبة..... ١٠٣
الفصل الثالث ١٠٧
معنى المراقبة والمحاسبة ١٠٩
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ١١٠
الطريق العملي للمحاسبة..... ١١٨
آثار الخوف من اللهَّ تعالى في الدنيا والآخرة..... ١٢٠
اغتنام فرصة العمر..... ١٢٣
الفصل الرابع ١٢٩
قصص التائبين..... ١٣١
توبة بشر الحافي ١٣١

ستر الله للتائبين..... ١٣٤
التوبة في اللحظات الأخيرة..... ١٣٥
صاحب الأكفان ١٣٦
العابد والشيطان ١٣٨
توبة بهلول ١٤١
دعوة مستجابة ١٤٧
توبة قاتل ١٥٠
هو الستار التواب ١٥٣
توبة فُضَيل ١٥٥
توبة شعوانه ١٥٩
توبة العابد..... ١٦٣
الشاب العاصي ١٦٦
أسئلة كتاب ففروا إلى الله..... ١٦٩